من وراء القضبان
(٤)

امرأة بلا قلب

وحوادث أخرى

د. نبيل راغب



امرأة بلا قلب
وحوادث أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ

صدق الله العظيم



DAR AL AMEEN

طبع ● نشر ● توزيع

القاهرة : ١٠ شارع بستان الدكة من شارع الألفي (مطابع سجل العرب)

ت : ٩٣٢٧٠٦

ص.ب : ١٣١٥ العتبة ١١٥١١.

الجيزة : ١ شارع سوهاج من شارع الزقازيق - خلف قاعة سيد درويش بالهرم - ص.ب : ١٧٠٢ العتبة ١١٥١١.

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

رقم الإيداع ٢٠٦٠/ ١٩٩٥

I.S.B.N.

977-5424-83-6

مقـــدمة :

من أقوال السابقين : إن الله سبحانه وتعالى عندما وزّع الأرزاق على الناس ، لم يرض إنسان برزقه قط ؛ ولكنه عندما وزّع العقول عليهم ، رضوا جميعًا ، واعتبر كل إنسان أن عقله هو أرجح العقـول وأكملها ، ولا يرضى به بديلاً . نقـول هذا ونحن نقـدم لهـذه السلسلة التى تعـرض نمـاذج مـخـتلفـة ، متناقضة ، ومتضادة من السلوك البشرى الإجرامى ، فنحن نعلم أن الجريمة سلوك بشرى ، فيه التخطيط والتدبير والتنفيذ وكلها مراحل يستـعمل فيها الفاعل عقله ويكون راضيًا عن تدبيره مقتنعًا بوصوله للهدف فى غفلة من الضحية والمجتمع .

ونحـن هـنا ندعـو القـارئ العـزيز أن يتـدبر وهو يقـرأ ما نعرضه فى الصفحات التالية من قضايا ، ففيها تنوع واختلاف ، فيها أثر الأسرة ، المجتمع ، التعليم ، الجهل ، الانحراف ، القيم الروحية ، الغرور ، الطمع والجشع ، البيئة والتعليم .

نحن لا نقـدم مـوعظـة ولا نصـيـحـة ؛ ولكننا نصـحب القارئ إلى قلب المجتمـع ، إلى الشارع ، إلى مدرسة الحياة ،

وأيًا كان القارئ العزيز ، أب ورب أسرة أو أم مسئولة عن سلامة أبنائها أو شابًا يتطلع إلى المستقبل بكل طموحه من الثراء ، أيًا ما كنت عزيزى القارئ ، فستجد نفسك معنا فى هذا الجمع من الكوارث والقضايا الحقيقية : نصابون ، محتالون ، قتلة ، فنانون أعمتهم الشهرة ، مدمنون استعبدهم الكيف ففعلوا كل شيء ، وكانت النتيجة : ضحايا وندم حيث لا ينفع الندم ؟ ولكن الأهم ، والسبب الذى نقدم من أجله هذه السلسلة ، هو الدرس المستفاد ، هو محاولة لإضاءة الطريق ، مستفيدين من أخطاء وتجارب الآخرين وبين أعيننا وفى عقولنا وقلوبنا حقيقة مؤكدة ، هى أن الجريمة لا تفيد ..



امــرأة بـلا قـلـب

احتارت كريمة فى أمر نفسها كما احتار فيها الآخرون فهى فتاة رقيقة بها مسحة من جمال هادئ يمزج السمرة الدافئة بالخجل الوردى كلما شعرت بمن ينظر إليها بإعجاب من طرف خفى ! لكن هذا الإعجاب الخفى لم يتحول أبدًا إلى خطوات عملية تؤدى إلى باب الزواج الذى لم يُفتح لها حتى الآن برغم أنها أصبحت على مشارف الأربعين التى طاردتها بأشباح سن اليأس المرعبة .

كان إحساس الآخرين الذى برز فى ومضات خاطفة أنها فتاة باردة ليست لها علاقة بالعواطف الجياشة والمشاعر الهادرة سواء من قريب أو بعيد . لم يدركوا أنها تقبع على بركان هادر بحمم مكبوتة تحت سطح يتظاهر بالهدوء والاستواء !! لم يخطر ببال أحدهم كم كانت تتقلب على جمر النار كلما اختلت بنفسها على فراشها أو أمام مرآتها التى شهدت مالم تشهده عين بشر من قبل ؟! لكنها عندما تواجه الناس تفاجأ بقوقعة من الحيرة والخجل والخوف تحيط بها ،

وتسد بقشرتها السميكة الصلبة كل القنوات التى يمكن أن تتدفق فيها المشاعر الفوارة جيئة وذهابا بينها وبين الآخرين ، خاصة الرجال منهم !!

وهى تؤمن بالقسمة والنصيب لكنها تؤمن أيضًا أن هناك شيئًا اسمه الإرادة الإنسانية و التوقعات المحتملة والمقاييس المتعارف عليها بين البشر ، فقد تزوجت من هى أقل جمالاً ورقة منها بل وأقل ثراءً ؛ ولو كان هناك إنصاف حقيقى للبشر لكانت قد تزوجت قبل عشرات من بنات الأعمام والأخوال والصديقات ؛ لكن كل من يحيطون بها يُصرّون على أن المسألة كلها تقع فى دائرة القسمة والنصيب ، وأن ما فى نصيبها لابد أن يصيبها !!

وكم لعنت فى السر ثم فى العلن التقاليد التى تجبر الفتاة المصرية على انتظار أن يتفضل العريس ويطل بطلعته البهية عليها ! فهى لا تملك سوى الانتظار والقلق ينهشها ، ثم الانتظار واليأس يطبق على أنفاسها ، وهاهى قد دخلت مرحلة اليأس على مشارف الأربعين !! فى حين ترى فى الأفلام الأجنبية المرأة ما بين سن العشرين والسبعين وهي تقرر بمحض إرادتها أن تتزوج من الرجل الذى تتوقع منه أن يملأ

حياتها بالإشباع والبهجة ، وتعلن هذا على الملأ بلا خجل أو حيرة أو تردد ، فيقبل عليها الجميع بالتهنئة والتمنيات الطيبة ، والرجل الذى وقع عليه الاختيار سعيد كل السعادة ، وربما كان متردداً فى طلب الزواج منها خشية أن يقابل بالرفض ؛ لكنها جنبته كل هذا الحرج بإعلانها الصريح عن رغبتها وإرادتها الشخصية !

أما هى فلم تكن لها إرادة شخصية من أى نوع !! كم مر بها شبان تمنت أن تتزوج من أحدهم ؟! لكنهم مروا كالحلم العابر أو تلاشوا كالسحاب الصيفى !! لم تفلح النظرات أو مشروعات الابتسام المبتورة أو لفحات الخجل الوردى فى الإيحاء بالرغبات الدفينة كالحمم تحت سطح البركان !! ومن التقط منهم الرسالة ظن أنها مجرد نزوة طارئة فى انتظار إشباع سريع ، فما كان سوى أن أوقفته عند حده بمنتهى الصرامة والقسوة !! ذلك أن أية نزوة خارج قلعة الزواج لا تعنى سوى الضياع الكامل فى غياهب الجب أو تيه فى الصحراء !

ومع ذلك لم يخل الأمر من محطتين توقفت عندهما فى هذه الرحلة الخائبة . المحطة الأولى : كان زميلاً لها فى شركة

التأمين التى تعمل بها . اكتشف أن الزواج هو كلمة السر التى ستفتح له دنياها على مصراعيها . صدقته فى البداية إذ أن كلماته كانت تنبض بالصدق وتتدفق بالحماس وتفيض بالحب والتقديس . كان أستاذاً فى توظيف الكلمات المعسولة التى يصعب على أية فتاة ساذجة أن تخرج من دوامتها دون أن تكون قد فقدت الكثير !! لكن إصرار كريمة على هدفها الاستراتيجى كبح انسياقها خلف طوفان مشاعرها وجنبها السقوط فى شلالها الهادر !

ظلت تذلل له كل العقبات والحواجز والعراقيل فى حين كان يصر على تعميقها وترسيخها وتعليتها . تعلل بحاجته إلى وقت كاف لبناء مستقبله ، فلا يعقل أن يبدأ حياته معتمداً على مال زوجته ، فكانت تؤكد له أنه لا فرق بين مالها وماله !! كان يصر على البحث عن شقة تليق بها ، فلا يعقل أن تستقل من شقة أبيها المؤثثة بالرياش الفاخر إلى شقة أقل من متواضعة ؛ لكنها كانت ترد عليه بأن أبيها بدأ حياته فى شقة هى التواضع نفسه ، فالإنسان المكافح يكبر مع الأيام ليس فقط فى السن ولكن فى القيمة أيضاً ، ومع ذلك ففى إمكانه أن يقيم معها فى شقة أبيها الفاخرة الواسعة بعد أن رحل الأب

وانتقل الأخوة ، كلٌ إلى حياته الزوجية الخاصة ، ولم يتبق سوى أمها التى لا تحتل سوى حجرة نائية فيها ؛ لكنه عاد إلى المراوغة مرة أخرى . كان كل ما يريده منها الاختلاء بها فى قاعة سينما مظلمة أو ركن معتم فى كازينو ناءٍ ، أو الانطلاق معها فى سيارته الصغيرة إلى أطراف المدينة المهجورة . كان كل همه أن يتسول لمسة أو قبلة قد تفتح له الأبواب المغلقة فى حين ظل الهدف الاستراتيجى الأثير عندها رهين الكلام المعسول !!

جربت معه كل وسائل الصد والهجر والرفض والحنان والحب ؛ لكنه كان يقابل كل موقف منها بموقف مماثل تماماً ! لكن كل القنوات كانت تتوقف عن الجريان عند الباب الموصد الذى أراد أن يفتحه دون أن يحول كلمة السر إلى واقع ملموس ! كان يستخدم كلمة السر كأنه يتحدث عن حالة الطقس اليوم ! فتحول خجلها وحيرتها وترددها إلى ضيق واشمئزاز وقدرة فائقة على الحسم ، خاصة عندما نما إلى علمها أنه ليس بالتواضع والاحتياج والفقر الذى يدعيه ، بل إنه صرح لإحدى زميلاتها بعدم استعداده للزواج من فتاة تكبره فى العمر ، حتى ولو كان الفارق بينهما مجرد شهور معدودة !!

وحسمت الموضوع بالبتر القاطع ! لكن وجوده معها فى نفس الشركة كان يسبب لها بعض الحرج والضيق والتوتر برغم أنه لم يكن معها فى نفس المكتب ! كانت تضطر إلى افتعال تجاهله وإنكار وجوده وتجنب نظرات الآخرين إذا تمت المواجهة فى المصعد أو أحد الممرات !! إذ أن الأمر لم يخل من تعليقات أو تلميحات من الزملاء فى غيبتها ؛ ومع ذلك لم يستمر الحرج طويلاً فقد فوجئت بنبأ مريح ذات صباح علمت فيه أنه أتم أوراق هجرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية ؛ ولم يعد أمامه سوى أيام معدودة ويشد الرحال إلى هناك بلا عودة .

سرى الارتياح العميق فى عروقها المشدودة ، فقد تلاشى شبحه ليس من الشركة فحسب بل من البلاد كلها . لكنه ارتياح لم يدم طويلاً أمام السؤال الخالد الذى داهمها مرة أخرى : وماذا بعد ؟! الأيام تجرى والسن تتقدم بها ، ولا يزال تمنعها وخجلها وترددها وحيرتها تشكل سياجًا حديديًا لا تستطيع القفز فوقه كى تخوض غمار الحياة وتتمكن من اختيار رفيق العمر على الوجه الأكمل !!

هل هى فى حاجة إلى انفتاح أشمل وأوسع على الحياة بحيث يمكنها من التحرك فى دائرة رحبة تحيط بنوعيات

متعددة من البشر ؟! و كيف يكون هذا الانفتاح ؟! إن معظم الشبان لا يرون فى المرأة سوى وسيلة للمتعة واللذة !! فهل هذا هو السبيل الذى يمكن أن يؤدى بها إلى الإمساك بقياد زوج المستقبل ؟! لكن كيف العثور عليه فى حياة ضيقة النطاق لا تتجاوز عملها فى شركة التأمين ، وإقامتها مع أمها المريضة فى الشقة الواسعة الموحشة ؟! إن كل الشبان الذين رشحتهم لنفسها وتمنت الزواج من أحدهم لم يكونوا سوى زملاء لها فى الشركة ، أو مترددين عليها لتحرير بعض وثائق التأمين ، فهل يمكن اقتناص أحدهم من خلال العلاقات العابرة لإجراءات العمل أو التأمين الرسمية ؟!

كم حسدت الفتاة الأوروبية أو الأمريكية التى يمكنها أن تعيش فى شقة بمفردها دون أن يمسها أحد بكلمة ؛ لكن كيف سيكون حالها لو رحلت أمها وتركتها وحيدة فى هذه الدنيا ؟! إنها تملك كل ما يغرى أى شاب بالزواج منها : الرقة والحنان والجمال الهادئ والشقة الفاخرة !! إذًا .. ما المشكلة ؟! أم هى مسألة قسمة ونصيب كما تسمع من كل المحيطين بها ؟! والدليل على ذلك أن بعض زميلاتها فى الشركة لا يملكن كل هذه المؤهلات والامتيازات ؛ ومع ذلك تزوجن ويعشن فى سعادة بعد أن أنجبن البنين والبنات !! بل إن إحداهن حاصلة على مجرد دبلوم التجارة المتوسط واستطاعت الإيقاع بابن

أكابر على استعداد أن يحضر لها لبن العصفور لو طلبته منه !! فى حين أن درجتها الجامعية التى حصلت عليها بتقدير امتياز وجعلتها حاملة للماجستير فى إدارة الأعمال وأهلتها للحصول على درجة الدكتوراه ، لا تلقى أى صدى عند الآخرين ، هذا باستثناء الحقد والغيرة عند بعض الزملاء !!

إن الأمور لا يمكن أن تسير على هذا المنوال ! فإذا كانت مسائل القسمة والنصيب تلعب دورًا إيجابيًا أو سلبيًا فى حياة الإنسان ، فليس أقل من أن يحاول الإنسان أن يتدخل فيها بقدر ما منحه الله من إرادة ، فإذا كان لا يملك رد القضاء فليس أقل من أن يسعى للطف فيه !!

لكن اللطف لم يحل !! رحلت الأم لتترك كريمة وحيدة وسط أمواج الحياة المتلاطمة التى لا تريد لها أن تصل إلى بر الأمان ! تحول بحثها عن هذا البر الآمن إلى سعى محموم وسباق مسعور مع الزمن ! لابد من أن تبلغه قبل فوات الأوان أو قبل أن تجرفها الأعاصير بعيدةً عنه ، فيغيب عن عينيها وتبتلعها الأفق فلا تعرف يمينها من يسارها !!

وكانت المحطة الثانية : التى توقفت عندها !! جاءها شاب وسيم من أسرة كريمة ليحرر وثيقة تامين على الحياة !! كان رقيقًا ومهذبًا للغاية ؛ لكن القلق من المستقبل والخوف من

المجهول لدرجة الوسوسة والشك القاتل ، كانوا من أسباب لجوئه إلى وثيقة التأمين على الحياة ، وكأن هذه الوثيقة ستدفع عنه غوائل الزمن !! لكن كريمة كمسئولة فى الشركة عن هذا القطاع لم تكن لتصرح له بمثل هذه الخواطر ؛ بل قامت بإتمام إجراءات الوثيقة بمنتهى الحماس وإن أوحى إليها إحساس دفين داخلها بالإبقاء على بعض الخطوات فى لقاءات قادمة حتى تضمن تردده عليها أكثر من مرة لعل وعسى !!

كان وسيمًا اسمًا وشكلاً ومسلكًا !! ارتاحت كريمة إليه وفتحت بوابات السد العالى التى حجزت خلفها فيضان العواطف الهادرة ، ودوامات المشاعر الفوارة لتغمرها فى تدفقها نحوه !! كان يكبرها بعدة شهور لكنها كانت تشعر فى بعض الأحيان أنها أمه !! عشقت طفولته وبراءته بل وتردده وحيرته ، التى منحتها أحاسيس السيادة التى افتقدتها طويلاً !! لقد شفاها دون أن يدرى من ترددها وحيرتها عندما اكتشفت أن هذه المشاعر الممضة اليائسة يمكن أن تصيب الرجال أيضًا ؛ بل بأسلوب يمكن أن يكون أكثر قسوة وعنفًا !!

شعرت معه بمنتهى الأمان والحنان ؛ كانت تداعب نفسها بقولها : إنه جاء ليحصل منها على الأمان من الشركة

التى تعمل فيها مقابل وثيقة غالية الثمن ، فحصلت هى منه على الأمان والثقة والحب البرئ مجانًا!! ففتح دون أن يدرى باب المنح والعطاء عندها مع تكرار اللقاءات خارج الشركة والتى ترك نفسه فيها على سجيتها ، واكتفى فيها بفتح قلبه لها معبرًا عن مخاوفه وشكوكه التى يحاول أن يهرب منها دون جدوى ، فآلت على نفسها أن تخلصه منها .

وجدت نفسها تقوم بدور الطبيب أو المحلل النفسانى .. بل إنها قامت بشراء بعض كتب التحليل النفسى التى قرأتها بنهم كى تساعدها على إخراج هذا العزيز الرقيق من دوامة الضـيـاع ، التى توشك أن تبتلعه فى أعماقها !! وبالفعل أوشكت على النجاح عندما منحها كل ثقته إلا قليلاً !! كانت هناك عقبة اسمها فكرى لم تستطع تذليلها ! .

كان فكرى هذا صديقًا حميمًا لوسيم ؛ لكنها صداقة تصل إلى حد التنويم المغناطيسى !! لم يمر لقاء بين كريمة ووسيم دون أن يقول لها : فكرى قال كذا وفعل كيت !! ورأية كذا واعتقاده كيت !! وعندما تسأله :

– وما رأيك أنت ؟!

يتردد قليلاً فى حرج ثم يجيبها متلعثمًا برأى قريب للغاية من رأى فكرى وإن لم يكن مطابقًا له فى اللفظ !!

ادركت كريمة أن فكرى هو المحرك الأساسى لفكره وسلوكه ، فحاولت أن تعرف عنه كل شىء ولم يبخل وسيم عليها بأية معلومات . كان مثل الطفل الذى يدلى لأمه بكل ما تريد معرفته عن موضوع معين !!

عرفت أن فكرى هذا لم يكمل تعليمه وأنه ينتمى إلى أسرة متواضعة ورقيقة الحال ، ويعمل موظفًا فى السنترال العمومى للتليفونات فى شارع رمسيس ؛ لكنه مثقف ومطلع على كل أمور الحياة ! صحيح أن مكتبته الضخمة فى منزله المتواضع تنهضه أساسًا على الكتب المستعملة التى اشتراها من سور الأزبكية فى عصره الذهبى ؛ إلا أنها تحتوى على أمهات الكتب سواء العربية أو المترجمة ، العلمية أو الأدبية ، وكان يفخر دائمًا بأنه ثورى وتقدمى ويسارى وغير ذلك من الألفاظ التى التقط وسيم بريقها دون أن يدرك معناها أو حقيقتها !!

لكن كل هذه الاعتبارات لم تشغل بال كريمة بقدر ما شغلها إستغلال فكرى لوسيم ماديًا !! فبعد أن نجح فى أن يصبح عقله المفكر بوصلة حياته لم يتأخر لحظة واحدة فى أن

يمنحه كل الهبات التى طلبها تحت ستار السلف التى تُرد فى أول فرصة ؛ لكنها لم ترد ولم يعبأ وسيم بأن ترد لأنه كان يشعر بأن النصائح الأخوية والفوائد الفكرية والمكاسب الثقافية التى يحصل عليها منه لا تعادلها أية سُلف مستردة ؛ بل إنه لم يكن يتصور حياته بدونه ، ولم يتردد لحظة فى تنفيذ أى رأى أبداه له حتى ولو كان على سبيل التلميح لدرجة أنه فسخ خطبته لفتاة أحبته من أعماق قلبها ، وهجر أخرى كان ينوى خطبتها لمجرد أن فكرى أوحى إليه بأنه لن يجد سعادته معها ، فالأولى كانت طامعة فى ثروته ولم تكن محبة له لذاته ، والثانية كانت على علاقة مريبة بأكثر من شاب قبله كما أثبتت تحريات فكرى الدقيقة والحريصة على سعادة صديقه ومستقبله !!

ادركت كريمة أن معركتها هذه مع فكرى هذا الغامض المريب الذى يرى فى وسيم الدجاجة التى تبيض له ذهبًا !! فهو لن يسمح لها بأن تنفرد به كى تفوز به فى النهاية !

خاصة وأن وسيمًا ارتبط بها ارتباطًا حميمًا لدرجة أنه لم يفاجئها عندما طلب يدها ، ولم تتردد لحظة واحدة فى الترحيب بطلبه لأنه خطوة من شأنها أن ترسخ أقدامها على طريق الزحف المقدس ، والتخلص من سيطرة فكرى على وسيم !

وتمت الخطوبة فى أضيق الحدود ، وفيها رأت كريمة فكرى هذا لأول مرة . كان كالثعبان الأملس عندما مد يده بالسلام والتهنئة بالخطبة السعيدة ! رأت فى ابتسامته الصفراء مزيجاً من الحقد السائل والتحدى المتحجر والخبث السام ! فقررت فى نفس اللحظة أن تتمسك بوسام بكل الوسائل الممكنة والمتاحة والمبتكرة ، فهو آخر أمل لها ، وإذا ضاع ضاعت معه حياتها ! لا يوجد إنسان كامل على وجه هذه الأرض ، والسلبيات التى تعتور شخصية وسيم يمكن إصلاحها بإغراقه فى بحر من الحب والحنان ! ستجعله يشعر أنها دنياه التى لا غنى له عنها ! والحمد لله أن غريمها رجل وليس امرأة تملك نفس أسلحتها المدمرة !!

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه كريمة وهى تحيي الضيوف والمهنئين بصفة عامة وفكرى بصفة خاصة . لقد قبلت التحدى وقررت قطع دابره ! صحيح أن الفضل يرجع إليه لأنه نجح فى أن يحتفظ بوسيم بلا زوجة حتى كان اللقاء بينهما ؛ ولولا ذلك لما استطاعت أن تقتنصه بدورها !! لكن عليه أن يعلم أن هناك من الطير ما لا يمكن أكل لحمه ، وأن رقتها وخجلها الوردى وجمالها الهادئ مجرد قشرة ظاهرة تخفى تحتها بركاناً فائراً بالحمم التى يمكن أن تصيب كل من حولها إذا كسرت هذه القشرة أو طارت !!

كان وسيم سعيداً لدرجة النشوة بكريمة التى أصبحت بالفعل دنياه الرحبة الزاخرة بكل ما كان يحلم به ، وتلاشى بالفعل شبح فكرى الذى لم يعد يذكره إلا إذا هى سألته عنه ! وكم كانت سعادتها عندما أيقنت أنها أعطت من التفكير والاهتمام بفكرى أكثر مما يستحق !! بل إنها أنبت نفسها على غبائها الذى هز ثقتها بنفسها ، وهى الثقة التى لم تكتسبها إلا بعد ارتباطها بوسيم الذى أشعرها بأنوثتها وأهميتها فى جياته التى أصبحت فيها بمثابة مركز الدائرة !

وسارت الأمور بل وجرت على خير ما يرام ! قامت الاستعدادات لتأثيث الشقة على قدم وساق ، فقد أصر وسيم على إعداد شقته هو رافضاً استغلال شقة كريمة التى اقترح عليها أن تؤجرها مفروشة بهدف زيادة دخلها ، وتضاعفت سعادتها به . إنه لا يريد منها سوى حبها !! إن نظرة حالمة من عينيها إليه كفيلة بأن تجعله يطير على أجنحة النشوة عبر الأيام والليالى ! ولمسة من أصابعها أو كفها قادرة على إصابته بمس كهربائى يسرى فى عروقه وأعصابه فيرى ومضات تبرق فى الأفق بوميض فضى لم تقع عليه عين بشر من قبل . أما لثم الوجنتيت بالشفاه المرتعشة فمهرجان النشوة وموكب الحذر السارى فى كل الوجود !

ومـع ذلك كـان وسـيـم كـالطفل الذى لا يشبع ولا يرتوى ! كان دائماً يطلب المزيد من الحب والحنان ليغترف من نهرهما كما يشاء ، ولم تكن كريمة لتصده ، وكيف لأم أن تسد منابع الحب والحنان عن طفلها الأثير ؟! بالإضافة إلى ثقتها فى براءته ونقائه ؛ ولذلك استجابت لتوسلاته الحارة لانطباع الشفاه على الشفاه فى لقاء محموم ولا تنكر هى نفسها نشوتها بالسعير المخدر للقبل التى رفعت عن فوهة بركانها الطبقة المتكلسة والمتحجرة التى تراكمت مع الأيام والليالى ، فتناثرت حممها ذات اليمين واليسار ؛ لكن وعيها الذى لم يكن يغيب تحت وطأة الحذر الفوار جعلها قادرة على الحفاظ على خط دفاعها الأخير ! فلن ترفع الراية البيضاء إلا بعد إتمام كل إجراءات الاستسلام الكامل أو بمعنى مباشر مراسيم الزواج ! وباءت كل تلميحات وسيم بالفشل فى مواجهة تراجع كريمة وانسحابها الرقيق المهذب ، ثم إصرارها على أن لكل شىء أواناً ، وهو أوان ليس ببعيد ، لأن تجهيز الشقة قطع شوطاً طويلاً ولم يتبق سوى القليل !

لكن رقة وسيم ورهافة حسه تحولت إلى عصبية وتوتر ! ولمساته الحالمة إلى عضلات من الحديد والصلب لم تكن تتصور أبداً أنها يمكن أن تتأتى لهذا الشاب الذى كان يهفو كالطيف السابح أو النسمة العليلة ! كذلك تطورت توسلاته

الحـارة إلى إلحـاح ممض تحـول إلى تلميح ثم تصـريح بأنها لا تثق فيه برغم طوفان حبه الذى غرقت فيه حتى أذنيها !

كـانت على وشك الاسـتـسـلام لولا جـملة قـالهـا لهـا ، أضاءت داخلها كل أضواء الإنذار والتحذير . قال :

– أكـد لى فكرى أن تجـهـيز الشـقـة سيـسـتـغـرق بعض الوقت !! لأن معظم العمـال والحرفيين المـهرة رحلوا إلى البلاد العربية للعمل فيها !!

لم تكتم شهقة خرجت منها برغم يقظتها :

– ومـا دخل فكرى فى هذا المـوضـوع ؟! ظننت أنك قطعت صلتك به لأنك لم تعد تذكر اسمه فى أحاديثنا !!

– وهـل كنت تتـصـورين فىّ القـدرة على القـيـام بـهـذه المهمة ، وأنا الذى لم أتعامل مع حـرفى أو عامل فى حياتى ؟!

– وهل يملك فكرى هذه الخبـرة ؟! كل مـا أعلمـه عنه أنه يعمل فى سنترال رمسيس .. ومثقف يملك مكتبة كبيرة !!

– فكرى يملك خبرات لا حصـر لهـا .. ولو كان حظه فى حجم ثقافته وخبرته لكان الآن من مشاهير المليونيرات !

غمرتها موجة من التشاؤم والإحباط :

– إلى هذا الحد أنت معجب به ؟!

– أنا مستفيد منه .. ليس إلا !

– وهل يقدم لك هذه الخدمات لوجه الله ؟!

– إنه يحصل على مقابل معقول نظير هذه الخدمات !

قررت أن تتسلح بالخبث لتسبر غور الموضوع برمته :

– وهل للصداقة ثمن ؟!

تعلم كيف يجادل فى عناد :

– إنه صديق وليس خادمًا !! ومن الممكن أن يقدم جهده هذا لآخرين ويحصل منهم على أضعاف ما يحصل منى !!

واصلت تساؤلاتها بحنق يلتحف بالبرود :

– وما الزمن الذى يتوقعه فكرى للانتهاء من الشقة ؟!

– كل شىء حسب التساهيل !!

– إذا كنت فى عجلة من أمرك .. فيمكننا الزواج فى شقتى لحين الانتهاء من إعداد شقتك ؟!

– أقسمت منذ البداية ألا أمس شيئًا من ممتلكاتك !!

– ولماذا تصطنع هذه الفوارق ؟! مالى هو مالك !!

كما أننا لن نستقر فى شقتى وإنما هى مجرد إقامة مؤقتة !

– المبدأ لا يتجزأ أبدًا !

– لكن لكل قاعدة استثناءات .. والضرورة تبيح المحظورات .. هذا إذا كنت تعتبر إقامتنا فى شقتى من المحظورات !

أجابها بمنطق كيدى لم تكن تتوقعه أبدًا :

– هذا إذا كانت هناك ضرورة أصلاً !

سألته وهى تتفحصه بدقة :

– ألا ترى فى الأمر أية ضرورة ؟!

– أنت التى ترين أن كل شىء يمكن أن ينتظر !! والضرورة بطبيعتها لا تحتمل الانتظار !!

– أعتقد أن ما بيننا أكبر بكثير من كل هذه الاعتبارات !

– إن ما بيننا هو مجرد مشروع زواج لا يتمتع بالثقة المفروضة أن تتوافر بين الأطراف المعنية فى أى مشروع آخر حتى لو كان مشروعًا تجاريًا !!

ذهلت لقدرته الفائقة على التلاعب بالحجج !! فهى لم تر هذا الجانب فى شخصيته من قبل لكنها لم تستسلم :

– الموضوع ليس بالبساطة التى تتصورها .. فالفتاة المصرية تملك من الحرج والحساسية والخجل والتوتر ما قد يعجز الرجل المصرى عن تصوره .. إنها ليست كالفتاة الأوروبية أو الأمريكية التى تنظر إلى الأمر على أنه مجرد تجربة مثيرة .. وقد لا تكون مثيرة على الاطلاق فى نظرها .. أما بالنسبة للفتاة المصرية فهو مسألة مصير ومستقبل !!

ضغط على نبراته وكأنه ينهى الموضوع بحسم :

– لو توافرت الثقة لما احتجنا إلى كل هذا اللف والدوران ! إن الصمت على جلستهما فى الكازينو النيلى الذى لم يعد حالمًا ! نظر إلى ساعته وكأنه يود الانصراف فلم تحاول أن تتذلل ، فنهضت ليلحق بها وينطلق بها فى سيارته ليودعها عند باب بيتها !!

ولم تعد الأمور سيرتها الأولى ! تباعدت مكالماته التليفونية وعز اللقاء فجن جنونها وهى ترى الطير الأخير وقد ابتلعه الأفق فى لحظة غادرة بعد أن تعلقت به كل آمالها وأحلامها فى مستقبل أيامها ! كم أنبت نفسها على سوء ظنها

وهو الذى منحها نفسه بلا حدود ؟! كانت تعالجه من ضياع ثقته بنفسه ، فاكتشفت ضياع ثقتها هى فى نفسها وفيه أيضاً ، وهو الذى اكتسب ثقته بنفسه من خلال ثقته بها !! ما سر هذا الرعب الدفين والشك القاتل الذى كان يصيبها برعشة كهربية كلما فكرت فى اقترابه من آخر معقل فى حصنها ؟! إنه يرتبط بها كما يلتصق الطفل بأمه فهل يعقل أن يملها بعد أن يصل معها إلى قمة الإشباع ؟! لا شك أنه يشعر بجرح عميق بعد أن بخلت عليه بنفسها ! ولو سار الأمر على هذا المنوال لانتهى بفسخ الخطبة وعودتها مرة أخرى إلى غياهب الضياع واليأس والإحباط والزمن الذى يسير ضدها يوماً بعد يوم !

قبل فوات الأوان قررت استعادته والاستجابة لكل رغباته فليس بين العاشقين حدود أو محظورات أو حساسيات ! وقد اكتشفت فى أسابيع القطيعة أنها عاشقة ولهانة بجنون ! كم استرجعت لمساته الحانية الرقيقة ، واستعرضت نظراته المشبوبة بنشوة الأحلام ، واجترت قبلاته المحمومة التى كانت تسعى لقطع المسافة بين شعر رأسها وأخمص قدميها عشرات المرات دون جهد أو شبع !! فهل يعقل أن تتخلى عن هذه الجنة الحالمة وتدير لها ظهرها لمجرد هواجس مريضة

تؤكد لها أن شرف البنت مثل عود الكبريت لا يشتعل سوى مرة واحدة ؟!

ذات صباح يوم أجازة وجدت نفسها تستيقظ مع أول خيوط للفجر كعادتها منذ القطيعة التى وقعت بينها وبين وسيم ! ظلت تتقلب فى فراشها الذى أصبح جمرات نار لا يهدأ لها أوار !! هاجمتها أطياف وسيم بعنف وبلا هوادة : لمساته ، همساته ، نظراته ، قبلاته ، توسلاته !!

وعندما دبت الحركة فى الشوارع المحيطة والمجاورة وعلت صيحات باعة الصحف والخبز واللبن ، ودقت ساعة المدخل الثامنة صباحًا ، لم تدر بنفسها إلا وهى تدير قرص التليفون ليجئ صوته على الطرف الآخر خافتًا ، متقطعًا ناعسًا اعتذرت عن إزعاجه فى ذلك الوقت المبكر بحاجتها المُلحة العاجلة لرؤيته ولقائه لتصفية الشوائب التى علقت بحبهما بلا مبرر ، فلم تعد تحتمل هذا الهجر أكثر من ذلك ، ولم ولن يشهد زمانهما حبًا وعشقًا أورع وأبهى وأجمل من حبهما وعشقهما !

دارت مكالمتها اللاهثة حول الحب والعشق والغرام فتوارت فى الظل معانى الخطبة والزواج والمصير والمستقبل والحرج والحساسية !! وإذ بصوته الجزل المنتشى يتدفق من الطرف الآخر كزقزقة العصافير فى استقبالها لنهار مشرق

جديد !! أو كضحكات طفل أمسك بثدى أمه بعد جوع طويل وعطش أطول ! دعته إلى الإفطار معها ، فأخبرها بأنه سيمتطى صاروخًا من الصواريخ المنطلقة إلى القمر !!

كان يومًا ملحميًا !! شرب فيه وسيم رحيق النشوة وهو يقول لها بنبرات لاهثة وهمسات متقطعة :

– كنت فى قمة الغباء عندما رفضت فكرتك عن الزواج السريع والإقامة فى شقتك لحين الانتهاء من إعداد شقتى !!

أجابته بابتسامة واهنة تحاول التغاضى عن ألم محتم بين ساقيها :

– وكنت أنا أيضًا قمة الغباء عندما أوحت إليك تصرفاتى بعدم ثقتى فيك وأنا التى أحترق عشقًا لك !!

لكن الأسبوع مضى ولم يتم الزواج ! بشرها بأن فكرى أخبره بأنه تعاقد مع أربعة عمال ومهندس للديكور قادرين على الانتهاء من إعداد الشقة فى أقل من شهر ! أى أنها فرجت من أوسع أبوابها ! تقبلت البشرى ببساطة فى بادئ الأمر لكن شيئًا داخلها أصابها بخوف غامض جعلها تعود إلى التمنع مرة أخرى على أساس أن الزواج لم يتبق عليه سوى أيام معدودة ، مما جعل اللهفة بغير ذى موضوع ، كما أن حجة افتقاد الثقة قد تلاشت بعد أن أثبتتها له عمليا من أوسع أبوابها !!

ومع ذلك كان إصراره على زيارتها فى شقتها أمرًا مثيرًا للحيرة والقلق والاضطراب بل والضيق والرعب ، خاصة بعد أن طلبت منه أن يصطحبها إلى شقته كى تتابع وتستمتع باللمسات النهائية فى الجدران والأسقف والأبواب والنوافذ قبل توزيع قطع الأثاث فى الغرف ؛ لكنه تملص منها وعاد إلى سلوكه الصبيانى فى المراوغة واللف والدوران والحديث عن الحب والعشق والغرام الذى يجب أن يظل مشتعلاً !!

لم تملك سوى أن تفاجئه ذات مقرب وهى تدق جرس بابه ليفتح لها رجل فى منتصف العمر ، غائر العينين ، ثقيل النظرات المتسائلة فى قحة مبحوح الصوت :

– نعم !! أى خدمة ؟!

غلى الدم فى عروقها فقد كانت متأكدة أن العنوان صحيح وأن هذا الكريه هو فكرى . سألت فى حسم :

– الأستاذ وسيم من فضلك !!

وقبل أن يفتح شفتيه عن أسنانه الصفراء كان وسيم يقف خلفه مرحبًا بها فى حرج وتردد ولعثمة :

– أهلاً .. أهلاً يا كريمة !! ما هذه المفاجأة السعيدة ؟!

لماذا لم تخبرينى لنفرش الأرض بالرمل أو حتى بالبساط الأحمر ؟!

لكنها لم تتجاوب مع استظرافه :

- هل سأظل واقفة هكذا ؟!

تضاعف حرجه لكن مسحة الخجل القديم كانت قد تلاشت :

- تفضلى .. تفضلى !!

تراجع فكرى إلى الخلف فدخلت مع وسيم وهى تتأمل الشقة التى بدت عليها بعض المحاولات الهزيلة لإعدادها والتى يبدو أن وقتًا طويلاً قد مر عليها ، فبعض أدوات الدهان والزيت ملقاة إلى جوار الحائط ، وسقف المدخل مطلى بلون مغاير للجدران لكن رائحة الطلاء الطازج غائبة تمامًا !!

اجتاحت نذر الحظر كريمة وهى تجلس مع وسيم فى الصالون !

كان يبحث عن كلمات أو أكاذيب ليقولها لها فلم يجد سوى :

- عاد مهندس الديكور والحرفيون للتلاعب مرة أخرى بفكرى ؟! لم يعد هناك من يمكن الوثوق به !!

- عندك حق .. فعلاً .. لم يعد هناك من يمكن الوثوق به ؟!

شعر بالطعنة المباشرة الموجهة إليه دون توقع ! احتار كيف يرد لكن فكرى وقف بباب الغرفة متجاهلاً وجود كريمة تماماً وهو يقول ببرود مقيت :

– عن إذنك .. سأراك غداً !!

– فيم العجلة ؟! أريد أن أعرفكما ببعضكما البعض ، فهذا أول لقاء بينكما !!

– عندى ميعاد مع مهندس ديكور جديد .. سأذهب للاتفاق معه .. وسيأتى غداً ليعاين الشقة .

– هكذا أتسبب أنا دائماً فى إرهاقك وتعبك !!

– تعبك راحة !

– لا أعرف كيف أشكرك !! بدونك لم أكن أعرف ماذا يمكن أن أفعل ؟!

– لا شكر على واجب !! عن إذنك ؟!

ثم استدار ليخرج ويغلق باب الشقة خلفه دون أن يحيي كريمة بكلمة واحدة أو بمجرد نظرة !! لكنها لم تعبأ فقد كانت معركتها أشمل وأخطر من ذلك بكثير . حاول أن يملأ فراغ الصمت الرهيب ويتجنب النظرات المسلطة الحائرة :

– خطوة عزيزة !! هذه أول مرة ترين فيها فكرى ؟!

طفحت السخرية المريرة على سطح نبراتها :

– لم أنل هذا الشرف العظيم من قبل !! كنت أظن أنه تراجع عنك عندما اختفى ذكر اسمه من كلامك معى .. لكننى ادركت اليوم أن علاقتك به هى أقوى علاقة عرفتها فى حياتك !!

تجهم وجهه وسيطر صدأ الرنين على صوته :

– ماذا تقصدين ؟!

– لا أقصد شيئًا !! فهذا النكرة ليس قضيتى خاصة بعد أن اكتشفت حالاً أن إعداد الشقة لم يكن سوى وهم من الأوهام !!

– أنت على علم بكل الخطوات والعقبات .. فلا مبرر للتجريح !!

– تقصد الألاعيب والمناورات ؟!

– عدنا للتجريح مرة أخرى !!

فى تلك اللحظة ادركت السر فى التناقض الذى كان يعتور شخصيته وسلوكه وكلامه من حين لآخر ! فالبراءة والنقاء والخجل والوداعة والرقة والحنان والهيام من خصائص شخصيته ؛ لكنه عندما يجادل ويحاور ويناور ويضغط ويلح ويتراجع ويتقدم فإنه يتقمص شخصية فكرى الذى يبدو أنه

كان يلقنه ما يقوله وما يفعله بل وما يفكر فيه !! ركزت وميض نظراتها النارى على وجهه الذى تشاغل بالعصافير وصخبها قبل بياتها الليلى فى الشجرة المواجهة لزجاج النافذة :

– الآن أريد رأيك أنت النهائى فى الموضوع كله وليس رأى أى شخص آخر !!

قال وهو يتجنب نظراتها الفاحصة :

– أنت تعرفين رأيي بكل تفاصيله !

لم تكبت سخريتها المرة :

– هذا يعنى أن يظل الوضع على ما هو عليه .. وعلى المتضرر أن يلجأ إلى القضاء !!

عاد إلى التشاغل بالنظر إلى خارج النافذة فواصلت تضييق الخناق عليه :

– أغلى ما تملكه البنت هو سمعتها .. وبواب عمارتنا أصبح ينظر إليّ نظرات غير مريحة منذ مجيئك لزيارتى !!

واتته الجرأة أخيراً :

– لم أفرض نفسى عليك !! كل ما فعلته أننى لبيت دعوتك !!

– هل كانت دعوتى غلطة ارتكبتها فى غفلة من الزمن ؟!

– إذا كنت تعتبرينها غلطة فليس فى إمكانى أن أغير رأيك !

– وأنت ما رأيك ؟! قل لى ما يدور فى عقلك بكل صراحة .. فلم يعد الموضوع يحتمل أية مراوغة !

– أنت تعرفين تفاصيل كل ما يدور فى عقلى !!

– كنت تتهمنى بأننى لا أثق فيك .. ولقد بلغت معك نهاية المطاف لكى أثبت لك عمليًا مدى ثقتى بك .. لكن ثقتى الآن بدت فى الاهتزاز .. فكل الظواهر لا تبشر بأى خير !!

– وأنا بدورى لا أستطيع أن أمنح ثقتى لمن اهتزت ثقته بى !!

مال مقعدها تحتها ولم تصدق ما سمعته أذناها !! هل يمكن أن تتحقق أسوأ توقعاتها ؟! هل ارتكبت غلطة عمرها يوم رضخت لضغطه وإلحاحه ؟! هل يقهرها فكرى كما قهر كل فتاة حاولت الاقتراب من قبل من دجاجته التى تبيض ذهبًا ؟! لكن المسألة هذه المرة لن تتوقف عند حدود القهر بل ستتجاوزه إلى حدود السحق والقتل مع سبق الإصرار والترصد ! لأول مرة رأت فيه أقبح إنسان على وجه الأرض ! قطعت الصمت المريب الرهيب بسؤال مشتعل :

- متى سنتزوج ؟! من حقى أن أعرف إجابة محددة عن هذا السؤال !

- كما قلت لك .. بمجرد الانتهاء من إعداد الشقة !

طفح الملل والضيق فغمر نفسها :

- ومتى سيتم إعداد الشقة ؟!

أجابها بمنتهى الاقتضاب الكئيب :

- حسب التساهيل !

- أليس لهذه التساهيل ميعاد محدد ؟!

- لا أعتقد ..

- ولو بالتقريب ..

- لا أحب أن أعد بميعاد ثم أخلفه !

دون تفكير وجدت نفسها تنتصب واقفة وهى تقول :

- على كل حال .. لديك رقم تليفونى .. عندما تنتهى من إعداد شقتك يمكنك الاتصال بى !

ذهلت عندما انتصب واقفًا بدوره وكأنه يعلن عن سعادته بانتهاء الزيارة ، وكانت تظن أو تتمنى أن يمسك بتلابيبها ويرجوها أن تمكث معه أطول مدة ممكنة ! كانت تفكر فى مد

يدها بالسلام لكنها عجزت عن ذلك وهو ينظر إلى باب الغرفة وكأنه يفسح لها طريق الخروج بعينيه الحائرتين دون أن يفتح فمه بكلمة ! لم تعرف ماذا يمكن أن تفعل فقد غمر الشلل مناطق التفكير والنطق عندها ، فإذا بها تستدير وتخرج دون أن تسمع وقع خطواته خلفها !

فتحت باب الشقة وخرجت لتغلقه خلفها وقد غامت درجات السلم أمام وجهها إلى أن انطلقت إلى الشارع الذى التحف بعتمة المساء !!

مرت الأيام وأذنها على جرس التليفون الذى إذا دق كانت تنتفض وتقفز وقد أمسكت السماعة بيد مرتعشة لعله يكون وسيم على الطرف الآخر ! لكنها فى كل مرة كانت تتلقى سيلاً بارداً من مياه مكهربة عندما يصل إلى أسماعها صوت آخر غير صوته ! لم يكن صوته حبيبًا إلى هذه الدرجة ؛ لكنه كان الحبل الذى لابد أن يشدها من حافة الهاوية التى على وشك السقوط فى قاعها !

حدثتها نفسها بهواجس مرعبة دفعتها إلى الاتصال به ؛ لكنها كانت تضع السماعة عند دوران القرص بالرقم

الأخير ، والإحباط يسرى فى عروقها بأقسى أنواع المرارة ! كانت الأيام فى دورانها الكئيب تؤكد لها أن هواجسها المرعبة هى الحقائق الرهيبة التى ستجثم على أنفاسها حتى تزهقها ! والتى كانت ترعبها فتنهى المكالمة قبل الاتصال به !

لكنه واصل القطيعة ولم يتصل فكان لابد من قطع الشك القاتل باليقين المرعب ، فأدارت قرص التليفون بقلب واجف وأصابع مرتعشة . لم تضع السماعة هذه المرة بل جاء صوته على الطرف الآخر ليدور حوار كأطراف الأسياخ المحماة وسط جمرات النار ! لم تتذكر منه سوى جمرة لفحت عينيها وأحرقت وجهها حين قال :

– الفتاة التى تفرط فى نفسها مع رجل لم تتزوجه بعد حتى لو كان خطيبها يمكن أن تسمح لنفسها بتكرار نفس الفعلة مع أى رجل آخر !!

لم تصدق أذنها وتعللت بعدم التقاطها لكلماته فأعادها بمنتهى الوضوح والتأكيد ! كان الكابوس أقسى وأعتى من أن تستعيد قواها للتفكير أو للرد أو حتى للسباب ! لم تدر إلا وهى تضع السماعة وترتمى على أقرب كرسى باكية ، نائحة ، متشنجة ، يائسة ، ضائعة ، تراودها فكرة الانتحار حتى مطلع الفجر ! وعندما أشرفت بها هذه الفكرة على حافة الهاوية

والعدم والظلمة الأبدية ومضت فى الأفق فكرة كالبرق الذى يسبق الرعد !!

إذا كان هذا الإمعة قد قضى على أملها فى الحياة ، فلن تسمح له بالقضاء على حياتها نفسها ! وإذا كان الحب سلاحًا قد فقد مفعوله فى هذا الزمن فإن الانتقام سلاح بتار لكل الأزمنة والعصور ! لكن كيف ؟!

هذا هو السؤال وتلك هى المعضلة !!

استغرق الأمر أيامًا وليالى ! طاردها فى صحوها ومنامها ، هذا إن كانت قادرة على النوم ! لن تترك فكرى يستمتع بانتصاره ولذلك لن تكون الضربة القاضية موجهة لوسيم بمفرده ؛ لكن كيف توجه ضربة واحدة لاثنين فى الوقت نفسه ؟ كيف ؟! .

• لم تكن تتصور أن التخطيط للانتقام يمكن أن يساعدها على تجاوز المحنة التى كان يمكن أن تشطب اسمها من سجل الأحياء ! لقد فقدت كل شىء والانتقام لن يعيد إليها شيئًا !! ومع ذلك شعرت أنه الأسلوب الوحيد الذى يمكن أن تحقق به وجودها بل وتشبعه أيضًا ! إن ماجرى لها هو اغتصاب بكل ما تعنيه هذه الكلمة المقيتة المرعبة ! يتصور معظم الناس أن العنف ركن أساسى فى جريمة الاغتصاب ؛ لكن ماذا عن

الخديعة ؟! أليست النتيجة واحدة ؟! هى هتك العرض ؟! هل يمكن أن يخرج هاتك العرض المخادع من جريمته كالشعرة من العجين ؟! إذا كان القانون عاجزًا عن الإمساك بتلابيب مثل هذا المخادع ، المراوغ ، المهزوز ، الخائن ، فلتساعده هى حتى تمكنه من تسليط سيفه البتار على رقبته !!

هنا برقت فى ذهنها المعتم الملتهب فكرة كالوميض الخاطف ! إذا كان القانون فى حاجة دائمًا إلى أدلة وقرائن وشهود حتى يأتى مفعوله ، فلابد أن توجد هذه العناصر إذا لم تكن موجودة !! وإيجاد هذه العناصر لا يعنى ظلمًا لبرئ أو انتهاكًا للعدالة بل يعنى إعادة هذه العدالة إلى مجاريها الطبيعية ، خاصة وأن كل أركان الجريمة متوافرة : الخيانة ، الخداع ، الغش ، الكذب ، والتضليل ، وهتك العرض مع سبق الإصرار والترصد ! حتى لو كان المجرم ضحية تضليل مجرم آخر وقع تحت تأثيره ، فإن القانون لا يحمى المغفلين الذين يجعلون من أنفسهم أدوات للجريمة ! ذلك أن النتيجة واحدة سواء فى حالة الغفلة أو الوعى !! ولن ترحمه كريمة سواء المغفل ، المهزوز ، المنقاد ، أو الواعى ، المترصد ، الخبيث !!

شرعت فى استعراض وتحليل كل التفاصيل التى يمكن أن تشكل ثغرات تنفذ منها إلى قلعة السفلة ! واكتشفت أن

زيارتها الوحيدة لشقة وسيم يمكن أن تقدم لها هذه الثغرات على طبق من فضة بالإضافة إلى معلوماتها القديمة عن الشركة التى يعمل بها وسيم ، والفترات التى تتوقع أن يتواجد فيها فكرى معه فى الشقة ! كذلك سعدت بوجود بواب فى عمارته لأنها قررت أن تتخذ منه شاهداً دون أن يدرى ! فقد لمحته جالساً بظهره يتناول طعامه مع أسرته فى حجرته المجاورة للمصعد لكنه لم يراها !

لم تعد تحزن على الأيام التى تمر دون اتصال من وسيم للاعتذار أو العودة للتواصل ! فإذا كان يظن أن كل يوم يمر هو تعميق لإذلالها ثم عودتها راكعة تجر أذيال الخيبة ، فهو فى الوقت نفسه لا يدرك أن عنقه يقترب من حبل المشنقة مع كل يوم يمر ! أو على أقل تقدير سيقضى زهرة عمره مع صديقه الوفى فى تقطيع الأحجار بالجبل أو بين جدران الزنازين المعتمة الخانقة ! فقد نجح فى أن يجعل منها امرأة بلا قلب !

ترددت كريمة فى تنفيذ خطتها ؛ لكنها تأكدت أخيراً أن معنى حياتها كلها يكمن فى تنفيذها ، وبدلاً من ضياعها وتشتتها ستمسك بيدها زمام المبادرة ، وسترد الصاع

صاعين !! ولها فى خبرتها من عملها بالتأمين زاداً لا ينقطع ودراية عميقة بألاعيب بعض العملاء الذين يصطنعون الخطط للحصول على القيمة الإجمالية للتأمين بعد مجرد سدادهم لقسط أو اثنين أو ثلاثة !

أدارت قرص التليفون لتتصل بالنادى الذى اعتادت أن تقضى به أمسية الخميس مع وسيم ، وطلبت الجرسون الذى اعتادت أن تمنحه الهبات السخية ، وسألته عن وسيم ، فرحب بها وأبدى قلقه لغيابها عن النادى كل هذه المدة الطويلة ، وأخبرها بوجود وسيم فى حديقة الكافيتريا ومعه صديق كان ملازماً له فى الفترة الأخيرة ، وعندما عزم الجرسون على الذهاب لوسيم للرد على مكالماتها ، شكرته بحرارة وأكدت له أنها تفضل أن تجعل من وصولها للنادى مفاجأة له بعد سفرها الطويل بالخارج ! لكنها إذا عجزت عن المجئ إلى النادى بسبب مهمة لابد أن تنجزها أولاً ، فهى ترجوه أن يحتفظ بالمفاجأة أيضاً وكل ما تطلبه منه أن يتصل بها ويخبرها بترك وسيم للنادى مع صديقه ثم أملت عليه رقم تليفونها !

كانت المسافة من بيتها إلى بيت وسيم حوالى ربع ساعة بالسيارة ، فى حين المسافة بين بيته والنادى حوالى نصف ساعة ، وبين بيتها هى والنادى ثلاثة أرباع ساعة ، وكان من

عـادته أن يتناول طعـام الغـذاء يوم الخـمـيس فى النادى ثم يغادره فى حوالى الساعة السابعة إلى شقته ليغير ملابسه ويخـرج متـأنقًا لقضـاء السهـرة فى نـاد ليلـى أو سينمـا أو مسـرح ! وكانت كريمة قد اتصلت بشقته فى الخميس الماضى لتعرف تحركاته ! كان هو الذى رفع السماعة ليرد بعد أن تبادل كلمتين أو ثلاثة مع فكرى ، فهمت منها أنه حل محلها فى قضـاء سهرة الخميس ! لم تنبس بنبت شفة بطبيعة الحـال ووضعت السمـاعة وهى سعيدة ببداية تبلور الصورة فى ذهنهـا !

كانت جالسة إلى جوار التليفون وأمواج القلق تطغى عليها مع مرور الدقائق التى زادت على ساعة كاملة . ثم دوى الجـرس وإذا بالجـرسـون على الطرف الآخـر يخـبـرها بأن خطيبها وصديقه غادرا النادى منذ لحظات ! شكرته فى عجلة ووضعت السماعة لتنطلق إلى الشارع حيث أوقفت سيارة أجرة طوت الطريق صوب بيت وسيم لتهبط منها عند الناصية .

حاولت أن تقاوم أمواج القلق التى غمرتها ! كانت تنظر إلى كل الاتجاهات حـولها ثم تركـز على الاتجـاه الذى تتوقع عنده ظهور سيارة وسيم السوداء الصغيرة ! فتحت حقيبة يدهـا لتـتـأكـد من وجـود الزجـاجـة التى لا تزيد على حـجم

الإصبع ! بدأت تشعر بالألم اللزج بين ساقيها نتيجة لحركتها المتوترة ذهابًا وإيابًا على رصيف الناصية . كان كل همها ألا يراها أحد فى وقفتها هذه بحيث يتعرف عليها . حمدت الله على أن كل النوافذ والشرفات كانت مغلقة أو خالية باستثناء شرفة أطلت منها امرأة بلغت من العمر أرذله ؛ قامت بنفض بطانية ثم اختفت .

ظهرت العربة السوداء الصغيرة فتحركت كريمة صوبها وهى تترنح فى مشيتها على الطوار ، وتمسك بجبهتها فى محاولة مستميتة للاحتفاظ بتوازنها ؛ لكن عينيها لم تتحولا بعيدًا عن السيارة التى توقفت ووسيم ينظر منها فى ذهول أصابت عدواه فكرى الجالس إلى جواره ! كانت كريمة تشير إليه وكأنها فقدت النطق ، فلم يملك سوى أن يهبط ليمسك بها وهى تقول بنبرات لاهثة متقطعة مع حركاتها المهتزة المترنحة :

– اتصلت بك تليفونيًا بالبيت فلم ترد ! كررت الاتصال عدة مرات لكن لا مجيب !! كان أملى أن تكون موجودًا بالبيت وأن التليفون معطل .. فجئت ملهوفة لعلى أجدك !! صعدت إلى شقتك عدة مرات لكن لا مجيب !! لم أستطع العودة إلى بيتى !! كان كل أملى أن أجدك بأى شكل !! قررت الانتظار فى الشارع حتى لو عدت عند الفجر !!

صمتت لتلتقط أنفاسها لكنها عادت إلى الترنح بين ذراعيه وهو لا يدرى ماذا يقول :

– ماذا جرى ؟! هل وقع مكروه لك ؟! لماذا تنتفضين بهذا الشكل ؟!

كان فكرى يتأمل تناسق جسدها الجميل فى ترنحه ، فخرج من السيارة ليقول :

– لا يصح الكلام بهذا الشكل فى الشارع ! هيا بنا إلى الشقة !

سعدت كريمة لأول مرة باقتراح صدر من فكرى ! لقد عبر بالحرف الواحد عما كانت على وشك أن تنطق به !! عرض عليها فى سعادة غريبة أن تجلس إلى جوار وسيم لكنها أصرت على الجلوس فى المقعد الخلفى حتى لا يلحظ أحد الدوار الذى تقاومه بكل قوتها ! لم يملك وسيم سوى أن يقول فى خوف طفولى ذكرها بمخاوفه القديمة التى حاولت أن تخلصه منها :

– أرجو ألا يرانا أحد على الاطلاق !!

كانت كريمة سعيدة بعنصر المفاجأة الذى أصاب تفكيره بما يشبه الشلل التام ! قاد السيارة بآلية لم تمنعه من

النظر فى قلق خلفه لعلها تفصح عما دهاها ! لكنها كانت قد ارتمت على ظهر المقعد ونظراتها شاردة عبر النافذة !

توقفت السيارة أمام باب العمارة ليخرج منها وسيم مسرعًا ليفتح الباب ومعه فكرى لمساعدة كريمة على الخروج . كان البواب الأسمر يجلس على مقعده الخشبى فى المدخل وهو يشاهد السيدة المترنحة بين وسيم وفكرى اللذين أمسكا بذراعيها . أسرع إليهما لكن فكرى أوقفه :

– المدام مصابة بدوار .. ستبقى معنا حتى تستعيد توازنها ثم نقوم بتوصيلها إلى بيتها !!

صعد الثلاثة ونظرات البواب تتابعهم فى ريبة لم يحتملها وسيم ؛ لكن وطأة الموقف أعجزته عن الإمساك بزمام المبادرة !

ابتلعتهم الشقة فطلبت كريمة أن تستريح فى الفراش بعض الوقت لتلتقط أنفاسها وتستعيد توازنها . أسرع وسيم بها إلى غرفة النوم وأضاء النور لكنها رجته أن يطفئه ! نفذ كلامها وأسرع إلى الخروج بسلوك الرجل المهذب الذى أصابه الحرج فلم يعد يدرى ماذا يفعل ؟!

بمجرد أن خلت كريمة بنفسها أسرعت بإخراج الزجاجة الصغيرة من حقيبة يدها وفتحتها لتضع نقطتين منها على

غطاء الفراش . ثم اكتشفت فى الضوء المتسلل من باب الغرفة المفتوح بيجاما معلقة على مشجب قريب فنهضت فى خفة لتضع نقطة على سروالها مع تمزيق فتحته . ثم خلعت إيشارباً حريرياً كانت ترتديه تحت ياقة التايير وألقت به أسفل الفراش ! ثم أثارت الفوضى فى الفراش والوسادة وشرعت فى الصراخ والعويل !

– ابعد عنى يا سافل ! إنقذونى !! النجدة !! النجدة !!
هرع فكرى إليها وخلفه وسيم ! أضاء النور لكنها هجمت على فكرى فى محاولة لتمزيق سرواله وقميصه وتلويثها ببقايا النقط العالقة بأصبعها ، ثم دخلت فى دوامة من الهياج تكاد تنزع بأصابعها الحديدية شعر رأسها وتخلع أزرار الجيب وتفتح السوستة وسط الصراخ الذى دوى فى جنبات العمارة طلباً للنجدة والإنقاذ ! فما كان من فكرى سوى أن صفعها على وجهها صفعة مدوية حتى يسكتها ؛ لكن ظنه خاب إذ علا دويها وكأنه أمام عشرات من مكبرات الصوت !

ساد هرج ومرج على درجات السلم ثم دقاق عنيفة على باب الشقة ورنين جرس لا ينقطع وسط صيحات ونداءات محمومة : افتح .. افتح .. سنكسر الباب .. سنحطم الباب !!

كان وسيم عاجزًا تمامًا عن التفكير وعن استيعاب أبعاد الموقف وهو يذهب لفتح الباب لعله يتخلص من القنبلة التى انفجرت فى شقته دون أى إنذار مسبق . تدفق السكان والجيران وفى مقدمتهم البواب وهو يردد صائحًا :

– خوفى كان فى محله !! شكى كان فى محله !!

ثم هجم بكل قوته على فكرى الذى انهال على كريمة بالصفعات الآلية وكأنه تحول إلى آلة جهنمية ! قيده من الخلف بذراعين من حديد ، فى حين برز بين سكان العمارة ضابط برتبة عقيد هرع إلى التليفون ليطلب انتقال المسئولين المختصين إلى مكان الحادث ، ثم أمر بأن يظل كل شيء على حاله حتى يتم التحقيق والمعاينة !!

كان وسيم وفكرى يرزحان تحت وطأة كابوس لا يريد أن يتقشع فى حين واصلت كريمة بكاءها ونحيبها فى جلستها على حافة الفراش ، وسرت همهمات وتساؤلات بين المتجمهرين فى الشقة بحثًا عن إجابات شافية لحب استطلاعهم لكن اللا معنى كان سيد الموقف !

مرت اللحظات المجنونة وكل هم كريمة أن تتخلص من الزجاجة الصغيرة فى حقيبتها ! أخيرًا استأذنت من الضابط

أن تذهب إلى الحمام فسمح لها ، وهناك ألقت بها فى المرحاض تحت وابل من مياه السيفون وهى تتابعها بقلق إلى أن اختفت تماماً ! عادت إلى البكاء والنحيب وهى تفتح الباب فى طريقها إلى غرفة النوم حيث جلست على حافة الفراش مرة أخرى !

وسرعان ما جاء ضابطان ومعهما بعض الجنود وشرعا فى الاستجواب والتحقيق ، ثم لحق بهما وكيل النيابة للمعاينة .

لم يصدق وسيم أذنيه وكريمة تدلى بشهادتها :

– كنت فى طريقى إلى بيتى .. وإذ بسيارة وسيم تقف إلى جوارى ويهبط منها ومعه صديقه فكرى وطلبا منى الركوب .. لكننى رفضت .. جذبانى إلى داخل السيارة لكننى قاومت .. فلما كان من فكرى إلا أن أخرج قطعة من القطن وضعها بقوة على أنفى فلم أدر بنفسى إلا عندما شعرت بألم حاد نتيجة الاغتصاب !!

صرخ وسيم كطفل يولول فى تشنجات متقلصة :

– كاذبة يا حضرة الضابط .. كاذبة ياحضرة الضابط .. إن الذى جرى هو .....

قاطعه الظابط بحسم حاد :

- أجب فقط عندما أسألك !

ثم استدار لكريمة :

- أكملي .. ما علاقتك بالمتهمين ؟!

- وسيم كان خطيبي لكن الخطبة فسخت .. أما فكرى فهو صديقه الحميم اللصيق به دائمًا ؟!

- وما سبب فسخ الخطبة ؟!

- كان يصر على ممارسة الجنس قبل عقد الزواج .. وعندما رفضت وأصررت على الرفض .. تذرع بعدم ثقتى فيه ، وفسخ الخطبة بحجة أنه لا يستطيع أن يتزوج من فتاة لا تثق به !!

- وكيف تتهمين كلا من وسيم وفكرى باغتصابك فى حين أنك كنت غائبة عن الوعى ؟!

- لم أسترد وعيي إلا نتيجة لألم الاغتصاب .. شعرت به فى البداية من وسيم ثم بلغ قمته مع فكرى !!

لم يستطع وسيم أن يحبس صوته فصاح هائجًا :

- كاذبة .. كاذبة .. والله العظيم كاذبة !!

أشـار الضـابط لجنديين أمـسكا بوسـيم وأخـرجـاه من الغرفة عنوة ، ثم عاد إلى سؤالها :

– وكـيف يسـمح رجل مـحـترم لصـديقـه أن يغـتـصب خطيبته السابقة بهذا الشكل ؟!

– لقد هددنى فى آخر لقاء بيننا أنه سيذيقنى الذل على حقيقته لأننى لم أرضخ لرغبته !! وما لم ينله بالحسنى سيناله بالقوة !! لكننى لم أتصور أنه سيشرك صديقه فى الاغتصاب أيضًا !!

انفجرت باكية مولولة حتى لا تبدو أعصابها قوية لدرجة قد تثير الريبة ، ومع ذلك واصل الضابط سؤالها :

– ألم يكن ينوى الزواج منك ؟! عندئذ كان يمكن أن ينال ما يريد بمنتهى الاحترام والتقدير ؟!

– ادركت مـؤخرًا مراوغتـه وتلاعبـه بى فـالتزمت جـانب الحذر الذى كشف عن وجهه الحقيقى ! لكن لم أكن أتصور أن تصل به الخسة إلى هذه الدرجة !!

ثم انـخـرطت فى البكاء والنحـيب مـرة أخـرى فـسـألها الضابط :

– هل لديك أقوال أخرى ؟!

- هذا هو كل ما أعرفه !

ثم استدعى الضابط كلاً من وسيم وفكرى اللذين لم يفعلا شيئًا سوى تكذيب كل أقوال كريمة ، وإن كان وسيم قد علل فسخه للخطبة بأنها اعترفت له بأنها غير عذراء نتيجة لاعتداء شاب عليها فى صباها . ثم أكد فكرى كل أقوال وسيم منذ مقابلتهما لكريمة حتى وصول الجيران والشرطة والنيابة ، وأوضح أنه نصح صديقه بفسخ الخطبة عندما أسر إليه بفضيحتها ، فهو ليس مسئولاً عما ارتكبه غيره فى حق خطيبته !

لكن أقوال البواب أيدت كل ما قالته كريمة منذ دخولها العمارة معهما وقد أمسك كل منهما بإحدى ذراعيها حتى لا تسقط على الأرض نتيجة الغيبوبة التى كانت تعانى منها .

ثم جاء تقرير الطبيب الشرعى ليؤكد كل ما جاء فى أقوال كريمة ، خاصة فيما يتصل بقطرات الدم على غطاء السرير ، وبيجامة وسيم ، وبنطلون فكرى !! كان الدم مزيجًا من نزيف الجرح والحيض فى آن واحد ! كما أثبتت المعاينة أن المجنى عليها ألقت بالإيشارب الذى كانت ترتديه تحت السرير مخافة أن يخنقها به أحدهما وهى تقاومه بجنون .

كذلك فإن ورم شفتها السفلى كان نتيجة عضة من أسنان فكرى التى تطابقت بصمتها مع الجرح الذى أحاط بالشفة من داخلها وخارجها !

وأصبحت القضية الحديث المفضل فى معظم الصحف والمجلات ؛ بل أعلن مخرج سينمائى كبير أنه ينوى تحويلها إلى فيلم اجتماعى وبوليسى مثير ! وصال محامى وسيم وفكرى وجال ، كان بارعًا للغاية فى تركيزه على أن الوضع الناصع للأدلة والقرائن أكبر دليل على الشك فى صحتها ! فهى فى منتهى التخطيط المتقن والتنظيم الدقيق الذى لا يترك أية ثغرة للصدفة أو الخلل الذى يتيح للخصم التسلل منها والكشف والتعرية ! إن هذا التخطيط البارع للأدلة والقرائن المادية لا يصدر إلا عن عقلية عتيدة فى الإجرام ! خاصة وأن جميع سكان العمارة وجيرانهم يشهدون بحسن سير وسلوك موكله الذى اشتهر بينهم بالحياء والخجل والاستعداد لخدمة الآخرين بلا مقابل ! إنها تسعى للانتقام منه والقضاء عليه لمجرد أنه أعلن حقه فى رفض الزواج من فتاة تدعى أنها اغتصبت من قبل ، والله وحده يعلم إذا كانت قد تم اغتصابها بالفعل أم أنها مارست نزواتها مع كل من وقعت عيناها عليه ، ثم جاءت لموكله كى تمثل دور الضحية البريئة !

أما محامى كريمة فقد التزم الأسلوب التهكمى فى مرافعته كى يدحض كل حجج محامى الخصم . قال بصوت جهورى جلجل بين جدران القاعة :

– لو افترضنا جدلاً أن موكلتى تملك كل هذه البراعة فى التخطيط المتقن والتنظيم الدقيق لدرجة أنها لم تترك أية ثغرة للصدفة أو الخلل الذى يتيح للخصم التسلل منها ، فإن هذا يعنى أن موكلتى قد نجحت فى الإتيان بما لم يستطع أن يأتى به عتاة المجرمين عبر تاريخ الجريمة ، منذ أن قتل قابيل أخاه هابيل وحتى الآن !! أقصد أنها نجحت فى القيام بالجريمة الكاملة التى أثبت كل علماء الإجرام استحالتها ! فكيف تبز موكلتى الوديعة التى شهد لها الجميع بأنها كالنسمة العليلة .. عبقريات مثل مؤلفة الروايات البوليسية الشهيرة « أجاثا كريستى » ومخرج الرعب « ألفريد هتشكوك » اللذين أثبتا فى كل رواياتهم وفى كل أفلامهم أن المجرم مهما كان عبقريا فى إجرامه فلابد أن يترك هذه الثغرة التى نجحت موكلتى الطيبة الوديعة فى سدها أخيرًا ؟! هل يمكن أن يعقل مثل هذا المنطق المتهافت ؟! أريد ثغرة واحدة ولو فى حجم رأس الدبوس وأنا على استعداد لتوسيعها لأن هدفنا جميعًا هو بلوغ العدالة أينما كانت ! فأنا لا أدافع عن موكلتى بقدر ما أدافع عن العدالة ! والعدالة فى هذه القضية واضحة

وضوح الشمس ، فقد بلغت مرحلة اليقين ولم يتبق لها سوى أن تتجلى على أيديكم !!

حاول الصحفيون والإعلاميون الاتصال بكريمة لمزيد من المعلومات والتفاصيل ، فقد كانت القضية ملتهبة وحديث المجتمع كله ؛ لكن محامى كريمة كان لهم بالمرصاد بحيث سد كل الثغرات التى يمكن أن يتسللوا منها إليها ، خاصة وأن الخيال الصحفى اخترع قصصًا وحواديت أحدثت نوعًا من الضجيج والشوشرة جعل القاضى يصدر قرارًا بمنع النشر مما ضاعف من الشائعات والأقاويل التى يتفنن فيها العالمون ببواطن الأمور كالعادة !

شعرت كريمة أنها حققت بإرادتها وتفكيرها وتخطيطها كل ما كانت تحلم به ؛ لكن فى أعماق إحساسها بالإشباع كمُنَ مذاق غامض بالمرارة كلما تذكرت احتمال أن يصدر الحكم عليهما بالإعدام ! كيف تتحمل هذا الإحساس القاتل بالذنب مدى الحياة ؟! كذلك ماذا ستكون حالها لو حكم عليهما بالبراءة ؟! كيف يمكن أن تواجه المجتمع بعد ذلك ؟! هل كانت تدرك كل هذه الأبعاد والنتائج التى يمكن أن تترتب على فعلتها تلك ؟! ما هذه الدوامة التى استغرقتها وتصر على سحب روحها حتى القاع ؟!

لم تنم ليلة الحكم ! كثيراً ما جفاها النوم فى الليالى السابقة ؛ لكن هذه الليلة لم يغمض لها جفن ! وعندما غفت عيناها عند الفجر للحظات عابرة حلمت بصوت القاضى وهو يجلجل بكل الأحكام التى تتراوح بين البراءة والإعدام !

اكتظت القاعة بالحاضرين . قبع وسيم وفكرى خلف القضبان الحديدية فى محاولة لتجنب سهام النظرات التى تخرقهما بأسنة من جمرات نارية ! ثم أعلن الحاجب بصوته التلقيدى دخول هيئة المحكمة ! لم يستغرق النطق بأكثر من لحظات مرت كأنها سنوات بين النظرات الزائغة والقلوب الواجفة ! كان الحكم مفاجأة للجميع الذين راهنوا على أن الحكم لن يقل عن الأشغال الشاقة المؤبدة إن لم يصل إلى حد الإعدام ! لكنه اقتصر على الحكم بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات لكل من المتهمين !

لم تنس كريمة نظرات كل من وسيم وفكرى وكأنهما يتوعدانها بالانتقام الرهيب سواء قبل انتهاء مدة العقوبة أو بعدها ! انقشعت أحاسيس الانتظار بتحقيقها لانتقامها الذى خططت له بأسلوب يقترب من حبكة الجريمة الكاملة ، أمام الهواجس والمخاوف التى أطلت برؤوسها من دهاليز نفسها المعتمة !

هل يمكن أن يعى جرسون النادى أبعاد المكالمة التى دارت بينها وبينه يوم تربصت بوسيم وفكرى فيهرع بالادلاء بشهادته ؟! لكن المحاكمة استمرت شهوراً ولم يتقدم للشهادة أو يحاول حتى الاتصال بها ؟ فهل طبق المثل الشعبى الشهير : « الباب اللى يجيلك منه الريح سده واستريح » ، مثلما تكاد تطبق هى المثل المعروف : يكاد المريب يقول خذونى ؟!

وما هذا الإحساس القاتل بالذنب ؟! ألم تنتقم مما جرى لها ؟ وما جرى لها لم يكن هيناً !! فقد حطم شرفها وحياتها وكيانها ومستقبلها !! أليس هذا حكماً بالإعدام وإن كانت لا تزال تتحرك بين الأحياء ؟! أما هما فقد فقدا عشر سنوات فقط من حياتهما ! لكن هل سيمر الأمر كله وكأن شيئاً لم يقع ؟!

لأول مرة تدرك معنى صدام المصائد ! لكنه صدام بدأه وسيم بفعلته الشنعاء التى انقاد فيها لرأى فكرى الذى كان كل همه أن يطردها من حياته بأية طريقة !! وهل كان يمكن أن يفعلها دون عقاب ؟!

لقد أحاطها كل من وسيم وفكرى باستحالات أطبقت عليها كجدران سجن أو زنزانة من كل الجهات ، فكان من الطبيعى أن تجرهما معها إلى نفس الزنزانة ! لكن ماذا يمكن

أن يفعلا بعد خروجهما من السجن وبعد أن أصبحا من أصحاب السوابق ؟! هل ستعيش طيلة حياتها مهددة بهذا الشكل ؟! وربما خرجا بعد انقضاء نصف المدة لحسن السير والسلوك ؟! وربما ماتا نتيجة الأشغال الشاقة أو مات أحدهما على أقل تقدير ؟!

بعد انتهاء فورة الدوامة العاصفة بدأت أمور جديدة تتكشف لها : نظرات زملائها فى الشركة ؟! أبواب الشقق التى توصد إذا تصادف وقوع الأعين عليها وهى فى طريقها على الممر المؤدى إلى شقتها !! حتى بواب العمارة أصبح متحفظًا معها بعد أن كان كلماته معها دعوات بالخير والصحة والمستقبل السعيد ؟!

هل الانتقام نار لابد أن تحرق صاحبها فى النهاية إذا لم تجد ماتلتهمه ؟! كيف تجاسرت على وضع خطتها الجهنمية التى لاتتأتى إلا لعتاة المجرمين على حد قول محامى الخصم ؟! كان دافعها للانتقام لا يقاوم لكنها لم تكن تتصور أن تداعياته ونتائجه لن تقاوم أيضًا وكأنها الأقدار المتتابعة التى لا راد لها !

أصبحت حياتها محاطة بأسلاك شائكة محماة من علامات الاستفهام والحيرة والضياع التى فكرت فى الهرب

منها بالاعتراف بكل ما خططت له ! لكن ماذا ستجنى من مثل هذا الاعتراف سوى الوقوع فى هاوية سحيقة لا قرار لها ؟! فهى لن تستجير من الرمضاء بالنار ! فإذا قد حكم عليها بالسير على جمرات الرمضاء فلا بد أن تواصل السير حتى يفعل الله أمراً كان مفعولاً !! فربما حملت الأيام القادمة فى بطنها حلاً لم يكن يخطر لها على بال !! من يدرى لعل وعسى !!

❁ ❁ ❁

الهروب من المكتوب

ظنت دولت أن الثـروة التى هـبطت على زوجـهـا شـكرى الذى أصبح مقاولاً كبيرًا يتعامل بالملايين فى فترة وجيزة ، قادرة على أن تحقق لها الأمل الذى تهفو إليه نفسها منذ عشر سنوات حين تزوجت وكان شكرى لا يزال يسعى نحو خطواته الأولى بعد تخرجه من كلية الهندسة . كان هذا الأمل العزيز يتمثل فى إنجابها لابن يحمل اسم أبيه ويرث ثروته !

جاءت الثروة من أوسع الأبواب ولم يأت الابن فسـقطت فى دوامـة من القلق الذى لم يكن له مـبـرر من المـبـررات التقليدية المعروفة لدى العامة ، فقد كان زوجها يحبها حبًا جما ويعلن أمام كل الناس أنها « وشن السعد » فالحظ يحل عليه أينما حلت ! وكان مخلصًا لها بمعنى الكلمة فباءت كل محاولات الفراشات الجميلات اللاتى حمن حوله بالفشل !! كذلك لم يكن يقلقه عدم إنجابه لأبناء لأنه كان مؤمنًا فى أعماق قلبه بأنه لن يصيبه إلا ما كتبه الله له ! وهو يدرك أن لله حكمة فى كل مرحلة من مراحل حياته ، فهو الذى خلقه وصنعه

ومنحه العقل الذى يدرك به هذه الحكمة فإذا لم يكن الله قد مّن عليه بالإنجاب فتلك مشيئته التى لا راد لها ، وإيمانه يحتم عليه قبولها بنفس راضية لا تلهث نتيجة لدافع بشرى طارئ ! فالغرور البشرى هو الذى يصور لبنى آدم قدرتهم على الهروب من المكتوب !!

لم يفكر شكرى فى الطلاق أو الزواج من أخرى بغية الإنجاب ؛ بل كان يؤكد لزوجته باستمرار أنها دنيا كاملة له ! وهى أعظم هدية منحتها له السماء ! فهى تشغل مع عمله الناجح كل وقته وتفكيره وحياته زاخرة بالإشباع الروحى والوجدانى والحسى والمادى ، وأى تبرم بها هو من قبيل نكران أفضال الله ونعائمه التى لا تحصى !

كانت دولت تستمع إلى هذا التأكيد تلو التأكيد وهى منتشية بهذا الزوج المحب المخلص النادر فى هذا الزمن الذى استغرق الكثيرين فى دوامات لا تنتهى من المادة والجنس وغير ذلك من المتع الحسية التى تتجدد يومًا بعد يوم !! لكن فى قاع هذه النشوة كان يكمن إحساس ممض ، مرهق ، مقلق يوحى إليها دائمًا بأن كيانها ناقص ، لم يكتسب معنى وجوده بعد.!! وكان هذا الإحساس يتحول إلى طوفان غامر وعاث إذا ما نما إلى علمها أن إحدى قريباتها أو صديقاتها قد أنجبت طفلاً وأن عليها أن تزورها للتهنئة !

أما إذا استمعت إلى صرخة وليد أو ضحكة طفل فإن سكينًا ذات نصل حاد تنغرس فى قلبها فينزف ويصرخ بدوره بنداء الأمومة الذى لا يعرف الصمت ، والذى يصيبها فى بعض الأحيان بالهوس عندما ترى أما فى ناد أو حديقة وهى تدفع عربة طفلها الصغيرة أمامها وكأنها تحرك الدنيا بأسرها ، أو عندما تقع عينها على وليد أغمض عينيه وقد تشبث بثدى أمه يمتص منه رحيق الحياة ، أو عندما تمر بواجهات المحلات الزجاجية المتألقة التى تعرض ملابس الأطفال ولعبهم ، أو عندما تتابع من زجاج سيارتها الفاخرة الآباء والأمهات في خروجهم من أبواب المدارس وقد تعلق الأطفال فى أيديهم وبهجة الدنيا تقفز من بريق عيونهم ، أو عندما تضطر لحضور مناسبة عائلية سواء فى أسرتها أو أسرة زوجها ، فتجد الكبار يتحدثون عن متاعب الصغار ، وبعض الرجال يترحمون على أيام العزوبية ؛ لكن بمجرد أن يهل عليهم الصغار فسرعان ما يقفون فى دلال واضح بين سيقانهم أو يجلسون بين أحضانهم !

كان شبح الطفل يطاردها فى كل مكان تحل فيه ! فى الصحو أو المنام ، بمفردها أو مع الآخرين ، إذا أمسكت بجريدة أو مجلة ، إذا تابعت بعض برامج التليفزيون

أو الراديو . هذا عام الطفل ، وذلك عيد الأم ، وذاك أدب الطفل أو مسرح الطفل ، أو سينما الطفل ! الطفل هو المستقبل . الأمة التى تفرط فى أطفالها تقضى على مستقبلها بيدها . ضحكة طفل تساوى كنوز الأرض كلها . الطفل هو نبع البراءة والنقاء والصفاء وكل المشاعر النبيلة التى يفتقدها عالم الكبار .... إلخ من هذا الدوى المتواصل الذى يدق أذنها ويسحق قلبها !

كم باتت دامعة العينين على وسادتها التى حاولت أن تخفى بللها عن زوجها ؟! وكان زوجها الرقيق المرهف الحس واعيا بكل هذا لكنه كان يدعى التجاهل ويصطنع روح المرح والدعابة ! بل قرر ذات مرة أن يشغل وقت فراغها باشراكها فى شركة المقاولات التى يمتلكها ، فقد كانت خريجة متفوقة فى كلية التجارة ، وهى فتاة ذات حيوية بالغة تفيض منها على كل من حولها ! والعمل لا شك كفيل بإشباع هذه الحيوية أو امتصاصها ! ولم تمانع أو ترفض الفكرة لكن آداءها كان مليئًا بالأخطاء التى تم تلافيها فى الوقت المناسب ! فقد كان عملها متركزًا فى ضبط حسابات الشركة ، ويتطلب منها منتهى اليقظة والدقة ؛ لكن شرودها استمر وسبب لها من الإحراج ما جعلها تنسحب فى هدوء لتعود إلى فراغها الموحش !

ترددت مع زوجها على كبار الأطباء الذين أجمعوا على أن المسألة مسألة وقت ، واتفق معظمهم فى نوعية العلاج سواء بالنسبة لها أو بالنسبة لزوجها ، واقتصرت على حبوب منشطة مع بعض أقراص الفيتامينات ؛ لكن مرور الوقت لم يثبت حسن ظنهم وتفاؤلهم !

عندئذ قررت السفر إلى أمريكا لاستشارة كبار الأطباء هناك ، وكانت عمليات أطفال الأنابيب فى بدايتها التجريبية وطلب الطبيب من دولت أن توقع تعهداً كتابياً حتى تتحمل المسئولية كاملة ، وذهل شكرى وطاش صوابه عندما أعلنت عن استعدادها دون تفكير ! حاول أن يعترض ليوقفها عند حدها لكنه فوجئ بتحولها إلى سيل عارم ! نظر الطبيب إلى ساعته ثم قال لهما :

- إنها قضية خاصة بكما .. وعليكما حسمها فيما لا يزيد على أربع وعشرين ساعة.. فلن تجرى العملية بدون هذا التعهد !!

وقضى شكرى لأول مرة مع زوجته وحبيبته ورفيقة عمره ليلة ليلاء ، لم يغمض لهما فيها جفن ، وبلغ بهما سوء التفاهم أن ظنت دولت أنه مستمتع بعدم الإنجاب لأنه اعتاد الحرية وتجنب مسئولية الأطفال ، وعندما لاحت الفرصة فى الأفق فإذا

به يرفضها كأنها رجس من عمل الشيطان ؛ بل كان هذا هو التعبير الذى استخدمه على وجه التحديد ، فما كان منها سوى أن قالت :

– هل الإنجاب رجس من عمل الشيطان ؟!

أجابها وهو يتجنب نظراتها لأول مرة فى حياته :

– لن أسمح بأن تصبح زوجتى حقل تجارب !!

– أنا على استعداد أن أخوض الجحيم من أجل أن يرزقنى الله بطفل يصبح قرة عينى ويحمل اسمك ويرث ثروتنا !!

– إن مثل هذه التجارب هى تدخل فى إرادة الله !! إننا بذلك نتحدى هذه الإرادة الإلهية ولابد أن ندفع ثمن هذا التحدى فى النهاية !!

– أنا لا أومن بقدرة أى بشر على تحدى الإرادة الإلهية !! كل شىء فى هذا الكون خاضع لهذه الإرادة التى تسبب الأسباب .. كل البشر أدوات وأسباب مسخرة لتحقيق أهدافها !!

ذهل شكرى لمنطق زوجته المتماسك :

– فلننتظر سنة أو سنتين أو ثلاثًا حتى تستقر هذه التجارب الجديدة ويثبت نجاحها .. عندئذ يمكن أن نجريها ونحن مطمئنون !!

– خير البر عاجله .. ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ..

– كل كلامى نابع من حبى لك وخوفى عليك .. وأنت تعلمين هذا جيدًا !! أنت لا تدركين ماذا سيكون حالى فى أثناء إجراء العملية ونحن فى هذه الغربة ونبعد عن أرض الوطن آلاف الأميال !

– الأرض أرض الله .. والبلاد بلاد الله ..

– ما يقلقنى أن هذا الطبيب الجاف البارد قال لى إن أية عملية جراحية لها مخاطرها .. وأنه لا يوجد أى شىء فى هذه الحياة مضمون مئة فى المئة .. فلا مهرب من قانون الاحتمالات !

– أنت تعلم أنهم أناس عمليون وعلميون فى الوقت نفسه .. إنهم يشرحون كل شىء كما لو كانوا فى قاعة محاضرات ! وبالفعل فى لقائهما الثانى مع الطبيب شرح لدولت قبل توقيعها على التعهد خطوات إجراء العملية : كيفية استخراج البويضة والاحتفاظ بها خارج الرحم لتخصيبها الذى يستمر عدة أيام ثم إعادتها إلى الرحم ليأخذ الحمل مجراه الطبيعى !

ودون أن تستوعب كل الأبعاد العلمية وقعت دولت التعهد ، وقلب شكرى نهب لكل المخاوف والهواجس التى يحاكى بعضها العدم نفسه ! فلم تكن عملية من النوع الذى ينتهى فى اليوم نفسه مهما طالت ساعاتها ؛ بل كانت على مراحل بحيث اعتبرها شكرى أكثر من عملية ؛ لكن الطبيب طمأنه فى النهاية إلى أن الفحوص التى أجريت لزوجته قبل العملية كانت صحيحة تمامًا ولذلك حققت العملية كل أهدافها وأصبحت زوجته حاملاً بالفعل !! وعندما سأله وقد طار أخيرًا على أجنحة النشوة :

– وما الخطوات التى يجب اتباعها بعد ذلك ؟! خاصة وأننا لن نستطيع أن نتردد على أمريكا بسهولة !!

– الحمل ليس فى حاجة إلى التردد علينا هنا .. الطبيب المصرى المعالج يستطيع أن يباشره كأى حمل عادى !!

كان شكرى على وشك أن يُقَبِلْ الطبيب لكنه تذكر أن التقبيل بين الرجال غير مستحب على الاطلاق عندهم ، فشد على يده بحرارة وهو يسأله :

– وماذا عن ركوب الطائرة ؟!

– أنصح بالابتعاد عنها فى الشهور الأخيرة للحمل !

ثم نظر إلى ساعته واستأذن ! أسرع شكرى إلى زوجته ليجدها قد ارتدت ملابسها واستعدت للخروج ، فلم يكن قد تبقى على ميعاد الطائرة سوى ثلاث ساعات ثم تنطلق بهم من نيويورك إلى القاهرة بلا توقف فى إحدى عشرة ساعة ! كانت الفرحة أكبر من أن تحتمل الهبوط فى أكثر من مطار ، فاختارا الطائرة المصرية حتى يشعرا بأنهما بلغا أرض الوطن بمجرد دخولها .

انطلقت السيارة بهما وسط ناطحات السحاب التى لم يلتفتا إليها عندما وصلا نيويورك ! كان الوجدان مشغولاً بالدوامة التى لا قرار لها ، والآن صفا الفكر وأصبح يطاول ناطحات السحاب فى شموخها ! المدينة التى بدت مرعبة ومخيفة بعيونها الزجاجية المضيئة من عمائرها التى تكاد تطبق على الأنفاس لتزهقها ، أصبحت الآن عروساً لعوباً بواجهاتها المتراقصة بأمواج الضياء التى تخلب الأبصار وتجذب الأقدام لقضاء السهرة بين أحضان مسارحها وملاهيها !

انتهت إجراءات السفر فى دقائق وسرعان ما كانا يدبان بأقدامهما على أرض الممر الأنبوبى المؤدى إلى باب الطائرة المصرية العملاقة التى ربضت على أرض المطار كأبى الهول

وهى تحمل علامة حورس ، وبمجرد دخولها استقبلتهما المضيفة السمراء الجميلة بابتسامة مصرية عذبة وهى ترحب بهما وتقودهما إلى مقعديهما . كانت معظم المقاعد قد شغلت بالمسافرين من جنسيات متعددة وإن كانت الوجوه المصرية هى الغالبة بابتساماتها المتبادلة دون سابق معرفة .

دارت محركات الطائرة وأغلقت الأبواب وشرعت فى التحرك وكأنها تتهادى على الممر لمدة دقائق . كان الظلام يحيط بكل الأشياء خارج نافذة الطائرة باستثناء بعض العلامات الضوئية المتألقة ببعض الألوان البيضاء أو الحمراء أو الفسفورية ؛ لكن برغم محيط الظلام الذى تخوض الطائرة عبابه بدا الكون فى عينى كريمة وشكرى بحراً من الضياء الغامر !

توقفت الطائرة للحظات ثم زمجرت آلاتها لتنطلق على الممر بكل قواتها ثم ترتفع عن الأرض وتظل فى ميلها كسهم انطلق إلى أعلى من عقاله ، وسرعان ما بدت نيويورك كأنهار من الأضواء والأنوار المتدفقة كالشلالات والجنادل التى لا يبدو لها مصب أو منبع ! نظرت دولت إلى شكرى فى سعادة طاغية لا تجد كلمات للتعبير عنها ثم استرخت فى أحضان مقعدها وأغمضت عينيها وكأنها تحلم ! فقد امتزج الواقع بالحلم الذى تضاءل رونقه أمام روعة ما مرت به بالفعل !

واصلت الطائرة انطلاقها من ظلام إلى ظلام ؛ بل إن دولت عرفت من المضيفة أنهم سيصلون القاهرة فى الليل أيضًا ، فالطيران من نيويورك إلى القاهرة إما فى الليل أو فى النهار على طول الخط . هربت دولت من الظلام المحيط بالنافذة إلى متابعة فيلم على الشاشة الصغيرة أمامها ، عن صداقة نشأت بين طفل شريد وكلب ضال . لأول مرة تجد نفسها مستمتعة بمتابعة فيلم بطله طفل وإن كان تشرده قد ضايقها بعض الشىء !

انقضى الوقت بين النعاس ، وتناول المأكولات والمشروبات ومشاهدة الفيلم المعروض ، والاستماع إلى الموسيقى الصارخة من السماعات المثبتة فى مساند المقاعد ، فقد كانت الرحلة مريحة باستثناء بعض الهزات العنيفة فوق المحيط الأطلنطى والتى أثارت بعض الهواجس الكئيبة عند شكرى الذى تعجب للمخاوف التى يمكن أن تنشأ فى أعماق اللحظات السعيدة النادرة التى يمر بها الإنسان ! هاجمه هاجس وقوع الطائرة وسط عاصفة رعدية وسقوطها فى المحيط ! هل يمكن أن ينتهى كل شىء بهذه البساطة وهما اللذان طارا آلاف الأميال من أجل العودة بحياة جديدة ؟!

تهرب من هذا الهاجس المخيف عندما توقفت الطائرة عن اهتزازتها العنيفة وأعلن الكابتن فى الميكروفون سماحه

بفك الأحزمة ؛ لكن طيات الظلام ظلت تحتوى الطائرة التى بدت وكأنها ثابتة فى مكانها لولا أزيز محركاتها المكتوم الذى أوحى بحركتها ! كان كل أمل دولت أن تغمض عينا وتفتح أخرى لتجد الطائرة تهبط فى مطار القاهرة الحبيبة التى عادت إليها منتصرة وفخورة بذلك الذى بدأ يتحرك فى أحشائها ويدب بحياة جديدة كانت قد فقدت الأمل فيها على مدى السنوات العشر الماضية . كانت لهفتها للهبوط على أرض الوطن نتيجة لحرصها على عدم تعريض هذه الحياة الجديدة لمزيد من الهزات التى تطرأ على الطائرة كلما دخلت مطبًا هوائيًا !

كان الأهل والأحباب والأصدقاء فى استقبالهم وكأنهما عائدان من رحلة تاريخية ! ومرت أيام الحمل على أحسن ما يرام . كان الطبيب يؤكد لهما بعد كل زيارة أن الولادة ستكون طبيعية تمامًا . كانت دولت طائرة بحملها على أجنحة النشوة لدرجة أنها أدفنت متاعب الحمل وضربات الجنين فى بطنها ! لم تكن تفكر عما إذا كان الجنين ذكرًا أم أنثى ، فقد كان كل أملها أن تصبح أمًا بعد طول حرمان !!

وانتهى الحرمان بميلاد أيمن الذى بدأ كالبدر فى طلعته . مزجت ملامحه بين جمال أمه وتقاطيعها الدقيقة وبين

بريق عينى أبيه الحاد الأخاذ ، ولأول مرة تخاف دولت فى حياتها من الحسد ، إذ يبدو أن طول المعاناة وقلقها الزائد على أيمن قد أثر على نظرتها العلمية للأمور ، ففتحت أذنها للنصائح التى توحى بتعليق الخرز الأزرق على صدر أيمن ، وإلباسه أزياء البنات ، وتخريم العروسة الورقية وحرقها فى النار لفقأ عيون الحاسدين والحاقدين !!

وكان شكرى مندهشاً لهذا التناقض فى شخصية زوجته ! فقد لجأت إلى أحدث وسائل العلم فى علاج العقم ونجحت فيها لكنها سرعان ما عادت إلى خرافات جدتها وهى تعلم جيداً أن الله الذى منّ عليهما بأيمن هو القادر على رعايته وحمايته من كل شر ؛ لكن دولت كانت قد أصيبت بجنون اسمه أيمن ، ولو أصابه مرض من أمراض الأطفال العادية فإنها تقيم الدنيا ولا تقعدها إلا بعد أن تنخفض درجة الحرارة ويتماثل للشفاء ، لدرجة أن الطبيب المشرف على علاجه صارحها بأنه لم ير أمًا مثلها طوال السنوات الثلاثين التى عمل فيها طبيبًا للأطفال ، فالحمد لله .. صحة ابنها على ما يرام وليس هناك ما يقلقها ، ومع ذلك فهى أكثر الأمهات ترددًا عليه لمجرد السؤال عن سبب بكائه ذات ليلة لمدة نصف ساعة ، أو أنه عطس ثلاث مرات متوالية ذات صباح ، أو أنه امتنع عن وجبة الغداء ذات ظهر ... إلخ .

كـان شكرى قلقًا على انكبـاب زوجـتـه على أيمن بـهـذا الشكل . التـمس لهـا العـذر فى البـداية لكن بمـرور الوقت وعودتهما إلى العقم مرة أخرى . بلغ بها الأمر إلى الاستيقاظ مرتعبة من نومها وهى تصرخ : أيمن .. أيمن .. حبيبى !! ذات مرة تحلم بمن اختطفه منها ، ومرة أخرى بوقوعه من الشرفة على أحـجـار الطوار ، ومـرة ثالثـة بغـرقـه بين طيـات الأمـواج الهائجة ... إلخ .

كان شكرى هذه المرة يتمنى أن تنجب طفلاً آخر لعله يخفق من غلواء جنونها بأيمن ؛ لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ، ويبدو أن دولت كـانت تفكر فى نفس المـوضـوع ولكن من زاوية مـخـتلفـة . كـانت تحلم بـأن يكون لأيمن أخ أو أخت حتى لا يعيش فى الدنيا وحيدًا ، وكانت عمليات أطفال الأنابيب قد شـاعت ومـارسـهـا الأطبـاء المـصـريون بنجـاح ، فـرأت أن العـمليـة الأولى التى أنجبت بهـا أيمن يمكن أن تتكرر وتنجب أخًا أو أختًا لأيمن !

وكأن شكرى ودولت كانا يدركان ما يفكر فيه كل منهما دون البوح به ، فإذا بهما يفتحان الموضوع فى وقت واحد على مـائدة الغـداء ، وتصـر دولت على إجـراء العـمليـة على يد نفس الطبيب الأمريكى لأنها تتفائل به !! فقد آن الأوان لإنجاب طفل آخـر بعـد أن بلغ أيمن السـابعـة من عـمـره وأصـبح فى السنة

الأولى الابتدائية ، وهى لا تريد أن يكون الفارق فى السن كبيرًا بينهما ، وإذ كان فى مقدورهما أن يقوما بالإنفاق على روضة أطفال كاملة فأضعف الإيمان أن يتكفلا بأيمن وأخيه أو أخته على أقل تقدير .

كانت دولت كلها ثقة وإقبال على الحياة ورغبة عارمة فى التخطيط للمستقبل ؛ ولذلك طارت مع زوجها مرة أخرى إلى نيويورك ، وقد زاولها الخوف القديم تمامًا ، فقد مرت بالعملية فى وقت كانت فيه لا تزال فى مرحلة التجريب والمخاطرة . أما الآن فقد استقرت وانتشرت فى العالم كله ، وكان من الممكن أن تجريها فى مصر ؛ لكن زيادة فى الحيطة قررت العودة إلى الجراح الأمريكى الشهير الذى كان ميلاد ابنها الوحيد على يديه ، فقد كان أول من بشرها بالحمل وهنأها مقدمًا !

وصلا نيويورك وقد أصبحا أكثر خبرة وألفة بالمدينة التى شهدت أعظم خبر فى حياتها . لم يكن يقلقها سوى بعدها عن أيمن الذى تركته فى رعاية أختها ؛ لكن عزاءها الوحيد أن سفرها لن يستغرق أكثر من أسبوعين بالإضافة إلى أنها ستعود إليه بأجمل هدية يمكن أن يتوقعها : أخ أو أخت له !!

وتم اللقاء مع الطبيب وأجريت الفحوص التى أمر بها ولم يتبق سوى تحديد ميعاد العملية التى انتظرتها دولت على

أحر من جمر ! وكان اللقاء الثانى فى مكتب الطبيب الذى استقبلهما مبتسمًا وقد وضع النظارة السلكية الدقيقة على أرنبة أنفه ، وأمامه التقارير الطبية وصور الأشعة . قال وهو يتفحص إحدى الصور :

– لا يمكن إجراء العملية هذه المرة !!

تساءلت دولت بلا تفكير :

– لماذا ؟! لماذا ؟!

نظر إليها مليًا من فوق النظارة :

– أنت تحتاجين يا سيدتى إلى عملية من نوع آخر !!

كتمت شهقة كادت تفلت من حلقها :

– عملية أخرى ؟! كيف ؟! هل الأمر فى حاجة إلى عمليتين ؟!

– أبدًا .. هى عملية واحدة فقط .. وهى عملية سهلة وبسيطة للغاية !

نطق شكرى بعينين زائغتين :

– ما هى هذه العملية يا دكتور ؟!

– إنها عملية استئصال الرحم !! وقد جئتما فى الوقت المناسب .. ففيه ورم غير حميد كان يمكن أن ينتشر ويهدد حياتك نفسها !!

تساءل شكرى بصوت أجوف وهو ينظر إلى زوجته التى كانت ترزح تحت كابوس لا فكاك منه :

– أليس هناك حل آخر لإزالة الورم دون المساس بالرحم ؟!

– ولو كان هناك حل آخر لما تخلفت عن تطبيقه !!

ثم تظاهر بالابتسام وإثارة روح الدعابة :

– على العموم .. فهذه العملية تقبل عليها فتيات كثيرات فى أوروبا وأمريكا .. فلم يعد الإنجاب هدف المرأة فى هذا العصر .. إنها تريد الاستمتاع بحياتها دون متاعب الحمل .. ودون احتمالات الإصابة بأمراض المهبل التى كثرت فى السنوات الأخيرة !

تكلمت دولت بصوت صادر عن إنسان آخر :

– لكننى يا دكتور لم أكن أشعر بأى ألم على الاطلاق !!

– الألم ليس شرطًا فى كل الأحوال .. برغم أنه أعظم إنذار للإنسان كى يتدارك الأمر قبل أن يستفحل .. وأنت

محظوظة لأننا تداركناه بدون هذا الإنذار .. ومع ذلك كان هناك مؤشر حاولت أن تتجاهليه وهو ارتفاع حرارتك نصف درجة .. ولكى تطمئنى فقد تأكدت من الورم وأنا أفحصك .. لكننى لم أشأ أن أخبرك بشىء إلا بعد الاطلاع على نتائج الفحوص والتحاليل والأشعة .. وقد جاءت كلها مؤكدة لفحصى الأولى .. والآن لابد من تحديد ميعاد للعملية التى يجب أن تتم بأسرع ما يمكن .. أما إذا كنت فى حنين قاتل لطفل ثان فيمكنك أن تتبنيه !!

علق شكرى وقد أطرق برأسه :

– نحن لا نتبع نظام التبنى !

وأجريت العملية بنجاح وقد اشتد الحنين القاتل عند دولت نحو أيمن الذى يبتعد عنها آلاف الأميال . كانت تحلم بجناحين تطير بهما بسرعة البرق إليه . جاءت وكلها أمل فى حياة جديدة فعادت وقد جف نبع الحياة فيها !

حاول شكرى أن يخفف عنها بقدر الإمكان . قال لها وهو جالس إلى جوارها على متن الطائرة المنطلقة إلى القاهرة : إن الله قد مَنّ عليهما بأيمن برغم كل ما صادفا من عقبات ، كذلك كان حرصها على الإنجاب الثانى سببًا فى انقاذ حياتها من مخالب الموت المخادع الذى لم يكتشف

إلا بمحض الصدفة ، فقد شاءت العناية الإلهية أن تحفظ لها حياتها من أجل رعاية أيمن وتنشئته نشأة صالحة . كانت تظن أنها ستعود إليه بأخ أو أخت كأعظم هدية يمكن أن يتوقعها ؛ لكنها عادت إليه بهدية أعظم وأعظم ألف مرة ، هى حياتها نفسها !!

لكن دولت كانت شاردة بنظرات زائغة عبر نافذة الطائرة المنطلقة فى النهار فوق بعض الجزر الصغيرة المتناثرة وسط زرقة المحيط اللانهائية ، مثل مراحل حياتها المتناثرة بين المثال والواقع . بين الحلم والحقيقة . بين الرجاء واليأس . بين التفاؤل والتشاؤم ! كم كانت سعيدة فى الرحلة الماضية بالليل الطويل المحيط بالطائرة منذ قيامها من نيويورك حتى بلوغها القاهرة ؟!

وكم هى حزينة الآن برغم ضوء النهار الذى لا يريد أن يغرب عن نوافذ الطائرة ؟!

تعلقت بطيف أيمن هرباً من لجج الإحباط واليأس التى تكاد تغرقها ! ستبذل أقصى ما فى وسعها لتجعل منه أروع ابن فى الدنيا ، وصدق شكرى حين أكد لها أن الأبناء بالكيف وليس بالكم ، فابن واحد ناجح خير من عشرة فاشلين قادرين على إحالة حياة أبويهم إلى جحيم مقيم !

لكن دولت تحولت إلى إعصار مدمر فى حبها لأيمن وتعلقها به ! كانت على استعداد لجلب لبن العصفور إذا أشار بطلبه ! ولم يستطيع شكرى أن يواجه الإعصار الذى أوشك أن يقتلع ابنه من جذوره ! فقد أدى به التدليل إلى فشله المتكرر فى الدراسة ، وهو فشل لم يثير فيه أيه حمية لتغيير مسلكه . كانت كل رغباته ملباة فلم يعد أمامه هدف أو أمل يسعى لتحقيقه ، حتى السيارة الفاخرة قادها قبل السن القانونية وكان على وشك أن يقتل بها بريئًا لولا ستر الله ، وسعى أبيه لإخراجه من القضية كالشعرة من العجين بعد أن دفع تعويضًا كبيرًا للضحية المصابة !

عندئذ قرر شكرى أن يتصدى لزوجته مهما كانت النتائج ، ومهما كان الوقت متأخرًا ، فقد سئم كلماتها التقليدية التى كررتها على مسامعه مئات المرات :

– ليس لدينا ابن غيره ! وإذا لم يتمتع بعز أبيه الآن .. فمتى يتمتع ؟! هل أتينا به إلى هذه الدنيا لكى نعلمه الحرمان ؟!

هاج شكرى وماج لأول مرة فى حياته ! فليس هذا الابن المدلل الفاشل هو الذى يمكنه إدارة أعمال أبيه ومشروعاته التى كرس عمره كله لازدهارها ودعمها ! فلكل شىء فى هذه

الحياة حدود وقيم لا يمكن تجاوزها ! ومن الآن فصاعداً لابد من وضع هذه الحدود وترسيخ هذه القيم ، وأولها الإحساس بالمسئولية تجاه نفسه والآخرين فى الوقت نفسه ! لابد أن ينجح فى دراسته وأن يواصلها حتى حصوله على المؤهل الجامعى ، فقد منحه الله عقلا مثل بقية زملائه ولابد أن يستخدم هذا العقل قبل أن يصدأ ! ولن تلبى كل رغباته إلا فى مقابل جهد يقوم به أو نجاح يحققه فالمستقبل لا يفتح صدره إلا للناجحين والمتفوقين من أصحاب الإرادة الصامدة فى وجه كل أنواع التحديات !

ادركت دولت عبث مواجهة زوجها عند هذه النقطة الفاصلة ، فلجأت إلى المراوغة وتظاهرت بعودتها إلى جادة الصواب ، مما أشاع برد الارتياح فى أعصابه التى تراوحت بين الشد والاحتراق ! وانكب على عمله الذى كان يقضى فيه طيلة نهاره ظناً منه أن ابنه أصبح فى ظل رعاية أمه الواعية التى ادركت أخيراً أبعاد مسئوليتها المصيرية عن مستقبله !

لكن دولت كانت مصابة بضعف خطير فى مواجهة ابنها ! حاولت فى بداية الأمر أن تخلص لعهدها لزوجها ؛ لكن شيئًا غامضًا ومحيرًا داخلها كان يجعلها على وشك الانهيار إذا ما حاولت أن تمتنع عن تلبية رغبة لأيمن ! عندئذ ادركت السر فى مراوغتها لزوجها وتظاهرها بعودتها إلى جادة

الصواب ! فقد كانت تدرك فى أعمق أعماقها أنها غير قادرة على القيام بهذه المهمة الحاسمة ، وعاجزة فى الوقت نفسه عن الإفصاح عن استمرارها فى نفس السبيل الذى أدى إلى فشل ابنها بل وضياعه الذى لم تستوعب أبعاده إلا مؤخرًا !

لجأت إلى التظاهر بالحسم والحزم مع أيمن فى حضور أبيه ؛ لكن بمجرد انفرادها به تعود ريما لعادتها القديمة ، وتلبى طلباته ورغباته مهما كانت مكلفة ! بل إن تكاليفها كانت تتضاعف يومًا بعد يوم مما جعلها تلجأ إلى سحب مبالغ كبيرة من حسابها فى البنك دون أن تعى التغيرات التى طرأت على ابنها الذى أصبح شاردًا ، غير قادر على التركيز والكلام المنظم المتسق . شاحب الوجه . ثقيل الجفون . زائغ النظرات ! وعندما سألته عن هذه الظواهر الجديدة ادعى إنها نتيجة المذاكرة الطويلة مع زملائه حتى يحقق أمل أبيه فى نجاحه وتفوقه !

كان قلبها ينبئها بأشياء مرعبة ؛ ومع ذلك استسلمت كعادتها لتصدقه ؛ لكن شكرى لم يكن بالغافل عما جرى ! واجه ابنه فى ليلة مرعبة اعترف فيها بادمانه لشم الهيروين فما كان من أمه سوى أن صرخت وسقطت مغشيا عليها ! ظلت تكذب مخاوفها وهواجسها إلى أن اطبقت الحقيقة بكل ثقلها

على أنفاسها فتقطعت ! لكنها سرعان ما أفاقت على رائحة النشادر وصراخ ابنها فى حالة هياج جنونى وهو يتهمها بأنها هى التى وشت به عند أبيه وأوقعته فى هذا المأزق الذى سيؤدى به إلى المصحة ، ثم تهجم عليها وهو يحاول ضربها ، فما كان من الأب سوى أن انهال عليه بالركلات واللكمات حتى سقط على الأرض كومة لاهثة ، دامعة ، دامية ! لم تحتمل الأم منظر ابنها فغابت عن الوعى لتسقط إلى جواره !

انقضت الليلة الليلاء لكن نتائجها وتداعياتها لم تنقض ! لم يحتمل أيمن قيود المصحة التى تحولت إلى زنزانة تكاد تزهق أنفاسه وهو الذى اعتاد الانطلاق فى أى اتجاه بلا حدود فى الزمان أو المكان ! وسرعان ما تحولت الزنزانة إلى جحيم مستعر مع إجراءات العلاج وجرعاته المكثفة ، ومع الفكرة المقيته التى سيطرت على عقله وأوحت إليه بأن أمه هى السبب فى كل ما جرى له ! فقد أمسكت يدها عنه فى الفترة الأخيرة وهو يعلم جيداً أنها تجلس على تل من الذهب ، ولولاها لما عرف أبوه بحالته واستمر مستمتعاً بنشوته فى جنته الحالمة بأطياف السحر !

قتله الحنين لجنته فقرر الهروب من المصحة ، ونجح فى الإفلات من بوابتها لتفاجأ به أمه وهو يدق الباب فى جنون ! فتحته له ذاهلة فإذا به يدخل كالصاعقة ويغلقه خلفه وقد أخرج

من طيات ثيابه سكينًا ذات نصل لامع ! هددها بالقتل إذ لم تمنحه كل الأموال التى تحتوى عليها خزانة البيت ! حاولت أن تهدئه لكنه لم يكن فى وعيه ؛ أكدت له أن مفاتيح الخزانة مع أبيه وعليه أن ينتظره حتى يعود ؛ لكنه كذبها وهو يقترب منها رافعًا السكين وملوحًا بها فى الهواء . صاحت وقد تلاشى الخوف من قلبها :

– إننى أفضل الموت على أن تعود مرة أخرى إلى حياة الضياع التى تسببت أنا فيها بتدليلك وتلبية كل رغباتك !!

ومضت عيناه ببريق أصفر مخيف وصرخ :

– سألبى أنا هذه المرة رغبتك !!

وانهال عليها بالطعنات فى كل أجزاء جسمها حتى سقطت كومة من اللحم والدماء عند قدميه ! عاد إلى وعيه فى الحال وسقط إلى جوارها يقبل يديها وقدميها ويرجوها أن تعود إلى الحياة مرة أخرى ؛ لكن لا حياة لمن تنادى !!

فى سرادق العزاء جلس شكرى إلى جوار أخيه الأكبر كان من علماء الدين الأفاضل . سأله بصوت بح من البكاء :

– هل كنا نحاول الهروب من المكتوب يوم أصررنا على الإنجاب وسافرنا إلى أمريكا لإجراء عملية طفل الأنابيب ؟!

أجابه أخوه الأكبر بصوته الجهورى الزاخر باليقين :

– لا أحد يستطيع الهروب من المكتوب .. والله عز وجل منح الإنسان عقلاً ليطور به علمه ومعرفته بالكون والحياة إلى الأفـضل دائمًا .. فكل شىء بإذنه .. لكن النتـائج دائمًا من جنس الأسباب .. فإذا كان الإنسان مسيرًا فى النهاية ، فقد منحه الله حرية الاختيار فى البداية .. لكنه مسئول تمامًا عن نتـائج اخـتـيـاره بملء إرادته .. فـالجزاء من جنس العـمل .. والإنسان الذى يرعى النبت فى تربته لابد أن يشب قويًا عفيًا قادرًا على مواجهة عواصف الحياة .. أما النبت الذى تحجب عنه الشمس خوفًا من لهيبها ، والذى يمنع عنه الرى خوفًا عليه مـن الغـرق ، والذى لا تقلب تربتـه خـوفًا عليـه من ضـربات الفأس ، لابد أن ينمو شاحبًا معوجًا ، جافًا ، وعند أول عاصفة يفاجأ صاحبه بأنه لم يحصد سوى الهشيم !!



الصيد ليلاً

كان عصام شاباً من طبقة كادحة مكافحة . يشق طريقاً في الصخر من أجل مستقبل أفضل . لم يجد سلاحاً في الحياة سوى الدراسة كي يتفوق فيها على أقرانه ويثبت بها وجوده في المجتمع ، وكانت كلية الحقوق بمثابة ميدان المعركة التي لابد أن يخوضها وأن يخرج منها وقد تألقت على رأسه أكاليل الغار ، ففي المعارك المصيرية لا تراجع ولا هدنة ولا إضاعة للوقت في الترفيه عن النفس المتعبة ، ذلك أن المستقبل كله رهن بنتيجة المعركة .

أما صديقه وزميله ثروت فكان على النقيض من ذلك تماماً . كان يكبره في السن لتعثره في الدراسة الثانوية ، فقد كان شاباً مدللاً نشأ في أسرة تجمع بين الأرستقراطية والغنى ، وتمتع بكل مظاهر الرفاهية التي جعلته يرى في الدراسة مجرد ديكور يزخرف به حياته برغم إصرار عصام على دفعه للاهتمام بالدراسة ، وكان عصام قد ارتبط به في صداقة حميمة لأنه رأى فيه قلباً كبيراً لا يقيم وزناً للفوارق

الطبقية أو الحواجز الاجتماعية المصطنعة ! لكنه لم يدرك أنه كان يصادق الطلبة الكادحين والفقراء لإشباع إحساسه بالتفوق والسيادة ، ولم يكن كرمه فى إقراضهم أو منحهم الهبات التى لا ترد ، سوى وسيلة لهذا الإشباع ! وكان عصام ضمن الزملاء أو الأصدقاء الذين تمتعوا بهذه الامتيازات ، وإن أخذها على محمل الحب والصداقة وليس على محمل التفضل والتعطف والتنازل والمن ! بل وكان يصر على رد هذه الجمائل فى صورة نقل المحاضرات التى يتغيب عنها ، وشرح بعض المواد التى يصعب عليه هضمها ، بل وكتابة بعض الخطابات الغرامية لزميلته وفاء التى كان يتعبد فى محرابها ليل نهار ، إذ اشتهر عصام بين زملائه بالأسلوب الأدبى الرفيع والتمكن اللغوى الرصين لدرجة أن بعضهم تنبأ له بأنه سيكون خليفة توفيق الحكيم الذى درس القانون لتدركه حرفة الأدب على حد قوله !

كان ثروت مجنونًا بحب زميلته وفاء التى بادلته حبًا بحب نتيجة لرقته وعنويته ولهفته الدائمة عليها . كان هو وسيارته الجديدة فى خدمتها دائمًا . كانت متفوقة وفى منافسة حامية مع عصام على الحصول على أعلى التقديرات ، وكانت تتمنى من صميم قلبها أن يدخل ثروت

حلبة المنافسة العلمية ، فدأبت على أن تحفزه للاهتمام بدراسته لكن دون جدوى ، فقد واصل تعثره الذى اعتاده من قبل فى المرحلة الثانوية ؛ بل إنه لم يلتحق بكلية الحقوق إلا تنفيذًا لرغبة أسرته التى كانت ترى فيها كلية أولاد الذوات وأبناء البشوات ووزراء المستقبل !

وكانت النتيجة أن تعثر ثروت تمامًا فى دراسته الجامعية واستنفذ مرات الرسوب فى السنة الأولى إلى أن تم طرده من الجامعة ، فى حين بلغ عصام ووفاء السنة النهائية فى الكلية بنفس التفوق والإصرار والكفاح والإصرار الذى جعل وفاء تنظر إلى عصام بمنتهى التقدير والاحترام ، وهى المشاعر التى تطورت مع الأيام بحيث تحولت إلى رثاء تجاه ثروت ، وإعجاب ثم حب تجاه عصام !

حاول ثروت أن يستعيد حب وفاء ؛ لكن فشله المتكرر ، وتفاهة تفكيره التى تكشفت لها مع الأيام ، وإصراره على الضياع قتل حبها له فى مهده ! فكم واجهت نفسها بسؤال ممض ألح على وجدانها بهذه الكلمات : كيف أحب أو أعيش مع إنسان يصير على إهدار كل الفرص المتاحة أمامه ؟! هل يمكن أن يستمر الحب فى ظل حياة لا مستقبل لها ؟! هل يمكن أن يسير الحب جنبًا إلى جنب مع أحاسيس الشفقة والعطف والرثاء ؟!

لم يهتم ثروت كثيرًا بضياع الكلية من بين يديه ، بقدر ما صدمه ضياع وفاء من حياته ! حاول التمسك بها بقدر الإمكان لدرجة التذلل الذى لم يمر به من قبل فى حياته ؛ لكنه شعر أنها أصبحت ترثى لحاله وتعطف عليه وهو ابن الأكابر الذى اعتاد الرثاء للآخرين والعطف عليهم ، وعندما تأكد أن جرح كرامته سيستمر فى نزيفه بهذا الشكل اختفى تمامًا عن العيون فى حين لم يكلف أحد نفسه أن يسأل عنه ويطمئن على سبب اختفائه !!

تخرج عصام بتفوق فعين وكيل نيابة ، فى حين عملت وفاء محامية فى الإدارة القانونية لإحدى الشركات الكبيرة ، وتوجا قصة حبهما الناضج بالزواج الذى أثمر تامرًا وعبير . وانتقل عصام من نجاح إلى نجاح حتى رقى لدرجة القاضى وهو لا يزال فى ريعان الشباب . فى حين أصبح ثروت مجرد ذكرى كامنة فى أعماق الماضى لا تغرى أحدًا بترديدها !

كان ثروت صيدًا ثمينًا لأصدقاء السوء من الجنسين . تلقفوه ليشبعوا فيه عقد العظمة والعنجهية فى مقابل أن ينفق عليهم كل ريع ما ورثه عن أبيه من أرض زراعية وعقارات وأموال سائلة فى البنوك ، وعندما عجز الريع عن الوفاء بنفقاته

المتزايدة والمتصاعدة باعه ليتسلل ثمنه من بين أصابعه مثل قطرات مياه سقطت على رمال ناعمة متحركة !

وجد ثروت نفسه بلا مورد ولا معين بعد أن انفض عنه أصدقاء السوء الذين التهموا لحمه ثم ألقوا بعظامه على قارعة الطريق . بحث عن حبل ليتعلق به وينقذ نفسه من الغرق فلم يجد سوى صديق العمر عصام الذى طالما اقترض منه بلا مقابل ، ثم تزوج من حبيبة عمره وفاء ، وعاش حياة مستقرة حافلة بالنجاح الأدبى والأزدهار المادى ، وشرع فى البحث عن عنوانه حتى عثر عليه ، وتمت المقابلة التى كانت بمثابة مفاجأة بكل المقاييس لعصام الذى ظن أن ثروت ماض لن يعود ؛ لكنه عاد !

استقبله عصام بالترحاب والأسى لما وصلت إليه حالته ، وأقرضه ما فى إمكانه أن يساعده به ، مع نصائح أكيدة بالبحث عن طريق جديد فى الحياة ، ووعد بمساعدته فى البحث عن وظيفة له تعيده إلى حياة الاستقامة ولو كمجرد بداية !

لكن ثروت كان يريد المال والمال فقط ، أما النصائح فلا يمكن أن يقتنع بها أو حتى يقبلها من عصام بالذات بحكم

أنه هو الذى خطف منه حبيبة عمره ، ثم جاء الوقت الذى يمكن أن يذله فيه بمساعدته فى البحث عن وظيفة حقيرة له ، فيبدو هو القاضى الكبير المحترم ابن الأكابر فى حين يقبع هو فى وظيفة كتابية حقيرة مثل تلك التى كان يشغلها بعض بؤساء الموظفين فى عزبة أبيه أيام العز الذى مضى بلا رجعة !

خرج ثروت من زيارته لعصام وهو أشد نقمة على الحياة أخفى عنه زوجته ولم يذكرها بكلمة وكأنه رجس من الماضى لا يجب أن تقع عليه عيناها ! لعن اللحظة التى أوحت إليه بطلب مساعدته ليهينه ويذله بهذا الأسلوب الناعم الخبيث وهو الذى أغرقه بهبات ومنح لاتنسى طوال سنوات الجامعة . يكفى أنه اختطف منه حبيبة عمره ثم شرع فى خطف ما تبقى من كبريائه وكرامته وهو ابن الأصول الذى لم يتبق لديه شىء ، لاجاه ولا مال ولا حبيبة ولا زوجة ولا أسرة ولا مستقبل من أى نوع ! لقد سدت كل المنافذ فى وجهه من كل الاتجاهات فأصبح لا يدرى من أين يأتى ؟! وإلى أين يذهب ؟!

وأول خطوات نحو الحضيض لابد أن تنتهى بالسقوط فى هاويته حتى القاع . لم يتلقفه هذه المرة أصدقاء السوء لأنه لم يعد يملك ما يمكن أن يغريهم ؛ بل تلقفته عصابة للسطو على منازل الأثرياء لم يقاوم نفسه لحظة واحدة فى الانضمام

إليها بعد أن لمس بنفسه البذخ الذى يرفل فيه أعضاؤها ، وتخرج فى مدرستها بنجاح لأول مرة فى حياته بحيث شارك فى عمليات سطو عادت عليهم بالألوف المؤلفة ! لكنه ظل يتمنى فى قرارة نفسه أن تسطو العصابة على بيت عصام كى تسرق ما ادخره ، وهو لا شك كثير ، فى حين يخطف هو وفاء حتى يلقنها درساً فى الوفاء ! لكنه عندما عرض الفكرة على زعيمه سخر منه ونصحه بأن يبتعد عن الشر وأن يغنى له !!

لكن سرعان ما وقعت العصابة فى أيد العدالة ، وتشاء الأقدار التى ربطت من قبل بين ثروت وعصام أن تعود مرة أخرى إلى لعبتها ! فقد تم تقديم العصابة للمحاكمة أمام دائرة عصام الذي سرعان ما تنازل عن نظر القضية لمعرفته السابقة بالمتهم ، وتركها لزميل له يمكنه أن يكون أكثر موضوعية منه !

ودون أن يدرى عصام فإنه أصاب ثروت بالمرارة والإحباط لثالث مرة فى حياته ! المرة الأولى عندما خطف حبيبة عمره وفاء ، والثانية عندما رفض إقراضه المبلغ الكبير الذى طلبه منه ، وها هى الثالثة التى رفض فيها أن يحاكمه ، وترك الفرصة سانحة لقاضى آخر حتى يوقع العقاب الرادع به ، وكان فى إمكانه أن يكتم سر صداقته وزمالته القديمة له ،

ويحاكمه ثم يصدر حكمه ببراءته أو حتى بحكم مخفف لا يتجاوز السجن شهوراً معدودة ؛ لكن فرحته سرعان ما تلاشت عندما أخبره محاميه باعتذار عصام عن القضية وتركها لزميله القاضى الذى حكم عليه بالسجن خمس سنوات باعتبارها أول سابقة له .

وفى السجن لم يهدأ لثروت بال . احترق قلبه برغبة الانتقام من عصام ، قرر أن يواجهه بأى ثمن حتى يرد له كل مظاهر الإذلال التى لاقاها على يديه ، حتى ولو كان الثمن حياته نفسها !

كان نجاح عصام الأدبى ضخماً للغاية ؛ لكن طموحه المادى كان أضخم . لقد وجد أن ما يحصل عليه المحامى الكبير من أتعاب فى قضية واحدة قد يزيد على مرتبه هو فى عام بأكمله ؛ وبرغم صغر سنه فهو لا يقل مهارة عن أبرع المحاميين الكبار فى ممارسة العمل الحر ! وعندما اقتنع أنه خدم القضاء بما فيه الكفاية ، قدم استقالته وأسس مكتباً للمحاماه ، وسرعان ما انهالت عليه القضايا ، ليس من زبائن القاهرة فحسب بل من المحافظات الأخرى أيضاً !

أما ثروت فقد نام وصحا على كيفية الهروب من السجن ! أخيراً تفتقت حيلته على محاولة الانتحار بقطع

شريان يده ، وبالفعل تم نقله إلى مستشفى لإنقاذه ، وعندما أوشك على التماثل للشفاء واقترب موعد إعادته إلى محبسه ، نجح فى الهرب من المستشفى متخفياً فى زى أحد الممرضين ، ولجأ إلى بيت زعيم العصابة الذى لم يتم القبض عليه ، والذى لبى كل طلباته حتى لا يعود إليه مرة أخرى فيحوم بالشبهات حوله . منحه المبلغ الذى طلبه وكذلك المسدس ، وإن كان قد نصحه بتسليم نفسه حتى لا يقع فى جريمة أخرى قد تكون عقوبتها أشد ! لكن ثروت كان كالثور الهائج الذى لن يتوقف ولن يستسلم إلا إذا قابل المصارع البارع الذى لا تطيش سهامه ورماحه وضربات سيفه !

وذات يوم سافر عصام إلى الإسكندرية لمباشرة إحدى القضايا الهامة واصطحب معه عبير على سبيل الاستمتاع بيومين فى الإسكندرية بصحبة خالتها ، واستطاع عصام أن ينتزع البراءة لموكله بعد أن كان الأمل ضعيفاً فى حصوله عليها ، ومع إحساسه بنشوة الانتصار اتصل بزوجته تليفونياً فى القاهرة وأبلغها بعودته إليها فى نفس الليلة كى يحتفلوا معاً بالانتصار الجديد والأتعاب الضخمة التى حققها .

كانت وفاء بمفردها فى الشقة إذ أن ابنها تامر كان مع أصحابه فى النادى . دق جرس الباب فنهضت لتنظر من العين

السحرية فلم تجد أحدًا ! ترددت لحظات فعادت دقات الجرس مرة أخرى فأسرعت إلى العين السحرية لكنها لم تجد أحدًا هذه المرة أيضًا !! فتحت الباب بحرص شديد لتنظر خارجه فإذ بمن كان يجلس القرفصاء ينتفض واقفًا مشهرًا مسدسه فى وجهها وهو يدفعها إلى الداخل قبل أن تتحول شهقتها إلى صرخات فى آذان الجيران والسكان !

مرت وفاء بلحظات رهيبة احتبس فيها صوتها وتحجرت عيناها على هذا الشبح الذى دخل ليغلق الباب خلفه وهو يقول بصوت كفحيح الأفاعى :

– أى حركة أو صوت منك .. سأضربك بالرصاص فورًا !

خرج صوتها أخيرًا فى تساؤل مصعوق :

– من أنت ؟! وماذا تريد ؟!

ضحك فى سخرية مريرة :

– أنسيتى ثروت ؟! حتى مجرد ذكراى مسحت من حياتك ؟! شهقت وهى تتبين ملامحه من بين رموشها المرتعشة ، فلم تكن قد رأته منذ أيام الجامعة ، لقد جحظت عيناه ، وشقت التجاعيد طريقها فى وجهه ، وسرى المشيب

المبكر فى رأسه ! حاولت أن تتماسك ، فهى لا تقل شجاعة عن زوجها . سألته :

وهل هذه طريقة تدخل بها بيت أصدقاء قدامى ؟!

– وهل كنت ستفتحين الباب لو علمت من الطارق ؟!

– ولم لا ؟!

– وأنا من أصحاب السوابق ؟!

– إن الله يغفر الزنوب جميعًا ..

– لكن البشر لا يغفرون ..

ثم نظر إلى أبواب الحجرات فى ريبة وقلق وأضاف :

– لن نضيع الوقت فى سفسطة فارغة .. أين عصام ؟!

استجمعت وفاء كل طاقاتها الفكرية حتى تجيب بما يمكنها من مسايسته لحين التمكن من الموقف بقدر الإمكان :

– عصام سافر لمباشرة قضية فى الإسكندرية .. وسيمكث هناك يومين ..

– والأولاد ؟!

– عبير ذهبت مع أبيها لزيارة خالتها فى الإسكندرية.. وتامر ذهب إلى النادى كعادته كل مساء !!

– لو كنت تكذبين فحياتك هى الثمن !!

– كيف لرجل قوى مثلك ويمسك بمسدس أن يصر على تهديد سيدة عزلاء مثلى بالقتل ؟! أهذه هى الرجولة ؟! أهذه هى الصداقة بل والحب القديم الذى كان بيننا ؟!

– لا تذكرى الحب على لسانك ؟! فأنت أول من خانه ؟!

– أتنسى كم حاولت أن أدفعك إلى النجاح والتفوق ؟! لكنك كنت تصر على السقوط فى الهاوية التى أنت فيها الآن !!

التفت إلى جهاز التليفون الموضوع على مائدة مستديرة قريبة ، فإذ به ينقض عليه وينتزع أسلاكه المثبتة فى الجدار !

– لا تحاولى ولا تضيعى الوقت فى ثرثرة فارغة .. اجمعى كل الحلى والمال فى حقيبة .. وجهزى نفسك لمغادرة البيت معى !

– أفهم أن تأخذ معك كل ما غلى ثمنه وخف وزنه .. لكننى لا أفهم أبداً أن تأخذنى معك !!

– سأخطفك منه كما خطفك منى من قبل !

– وهـل تظـن أننـى شـىء معـرض لأن يخطفـه هذا أو ذاك ؟! عصام لم يخطفنى منك بل أنا التى تزوجته بمحض إرادتى عندما تخليت أنت عنى !!

– لا تتلاعبى بالكلام .. أنت التى تخليت عنى !!

– أنت تخليت عنى يوم تخليت عن دراسـتك وعن مستقبلك ! هل كان يمكن أن أتزوج من إنسان ضائع مثلك ؟! هل كان يمكن أن أتزوج من رجل يقتحم البيوت بمسدس ويهدد السكـان الآمنين فى حيـاتهم إذا لم يسلمـوا له أغلى مـا يملكون ؟!

– عليك بتنفيـذ مـا أمـرتك به !! أى تضـيـيع للوقت ستدفعين ثمنه من عمرك ؟!

تحركت فتحرك خلفها إلى غرفة النوم حيث فتحت الدولاب لتبدأ فى إخراج الحلى ، كل قطعة من علبتها ببطء شديد لعلها تكسب وقتًا أطول بقدر الإمكان ! واصل كلامه مستمتعًا بمشاهدتها فى قميص نومها الخفيف . أضاف قائلاً وهو لا يزال فى تصويبه للمسدس نحوها :

– عـصـام .. محظوظ دائمًا .. كـان يمكن أن يكون موجودًا بالبيت .. وربما تهور عليّ فقتلته فى لحظة طيش .. وما أكثر لحظات الطيش فى حياتى !!

تصنعت وفاء الدلال والرقة وهى تقول :

- هل تتذكر أيام كنت تصر على توصيلى بسيارتك الجديدة الجميلة إلى أى مكان ؟! كانت أياماً كالحلم !! من كان يتصور أن يصل بنا الحال إلى هذا الحد المحزن ؟!

ابتسم لأول مرة وكأنه يستعرض أطياف الماضى ؛ لكن سرعان ما داهمته الكآبة :

- كل شىء راح لحاله ..

- أتذكر عندما كنت أنزل من السيارة فتقول لى بالإيطالية : تشاو .. تشاو !!

- نسيت كلمة ؟!

- ما هى ؟!

- بامبينا .. كنت أقول لك : تشاو .. تشاو بامبينا .. كما كانت تغنيها داليدا !!

- وكان صوتك جميلاً للغاية !!

صاح فيها ثروت فجأة كمن تذكر شيئاً :

- أريد حقيبة لوضع الأشياء فيها .. ولا تحاولى تضييع الوقت مرة أخرى !!

– أنا لا أضيع الوقت .. ولكن أحاول أن أذكرك بالجانب الجميل فى شخصيتك .. الجانب الذى دفنته فى أعماقك تحت تراكمات الأيام الكئيبة !

أتحب أن أصنع لك شايًا ؟!

– إلعبى غيرها ؟!

– لا تخف .. سأشرب نصف الكوب قبلك حتى تطمئن أننى لم أدس لك سمًا أو مخدرًا !!

– فى ظروف أخرى كنت أحب أن أشرب من الكوب .. من نفس المكان الذى لمسته شفتاك .. لكن الأيام الكئيبة – على رأيك – قتلت كل شىء جميل فى حياتنا !!

– نحن الذين نقتل .. الأيام لا ذنب لها !

لوح بالمسدس فى الهواء :

– هيا .. احضرى الحقيبة !!

وقامت وفاء تبحث عن حقيبة مناسبة وهو فى أعقابها ينظر إلى ساعته فى قلق !

لم يعرف عصام وهو يقترب من مدينة بنها السبب فى إحساس غامض بالكآبة يداهمه ؛ برغم انتصاره الذى حققه

فى الإسكندرية والذى غمره بسعادة جزلى دفعته إلى شراء الحلوى والفطائر قبل أن يغادر الإسكندرية حتى يحتفل بالمناسبة مع أسرته الحبيبة بمجرد أن يصل ! ضاعف من سرعته مما أثار دهشة عبير الجالسة إلى جواره والتى تعرف جيداً كراهية أبيها للسرعة الطائشة ! لكنها قبعت فى مكانها دون تعليق لأنها كانت تريد أن تتخلص من الظلام الدامس المحيط بالسيارة بأسرع ما يمكن ؛ ولذلك استراحت لأضواء بنها والسيارة تشق طريقها الرئيسى لكنها فوجئت بأبيها يهدئ من سرعتها حتى وقف أمام مكتب للتغراف والتليفون . استأذن من عبير ودخل ليتصل بزوجته لكنه فوجئ بأن الرقم لا يرد ، كرر المحاولة عدة مرات بنفس النتيجة !!

اجتاحه القلق وهو يستأنف الانطلاق بالسيارة ويرد على تساؤلات عبير بأنها مكالمة كانت عاجلة ونسى إتمامها قبل مغادرة الإسكندرية ! لم يشأ أن يصيبها بالقلق الذى سرى داخله وسط علامات إستفهام محيرة ! لماذا لا يرد التليفون وقد اتصل بوفاء من الإسكندرية وكانت سعيدة بخطوته الناجحة الموفقة ؟! هل تعطل فجأة ؟! هل وقع مكروه ؟! ما السر فى هذا الإحساس الغامض بالكآبة والذى دفعه إلى الاتصال بوفاء ؟! هل لهذا الإحساس نصيب من الواقع بدليل

أن التليفون لم يرد ؟! فمن المستبعد أن تغادر البيت وهى فى انتظاره على أحر من جمر !! وحتى لو كانت قد غادرته فإن من عادتها أن تشغل جهاز تسجيل المكالمات !!

ولكى يهرب من كل هذه الهواجس الطارئة والمخاوف التى التحفت بالظلام المحيط بالسيارة ، عاد إلى مضاعفة السرعة حتى يقطع الشك باليقين !

عاد تامر من النادى ليدق الجرس عدة مرات على غير العادة قبل أن تفتح له أمه التى بدأ عليها اضطراب شديد ، وقبل أن يسألها صعق لمرأى ثروت ومسدسه ؛ لكن أمه حاولت أن تطمئنه إنه صديق قديم وقد لجأ إليهم هرباً ممن يطاردونه ويحاولون القضاء عليه !! لكن تامراً لم يقتنع بطبيعة الحال ، وشعر بأن فى الأمر شيئاً خطيراً للغاية وعليه أن يحمى أمه بطريقة أو بأخرى ، خاصة وأنه فى فريق الكارتيه فى النادى ويجيد الدفاع والهجوم بسرعة البرق .

وبالفعل غافل ثروت وحاول خطف المسدس منه ؛ لكنه كان أسرع منه ، وألقاه على الأرض بمنتهى العنف حتى لا يكرر المحاولة مرة أخرى ! لكن الفتى الصغير لم يستسلم ودارت معركة عنيفة بينه وبين اللص استخدم فيها كل ضربات

اليد والقدم ؛ لكن ثروت لم يتخل عن مسدسه ، كما لم يتخل الرعب عن وفاء التى توقعت انطلاق الرصاص فى أية لحظة ، فصرخت لتصارح ابنها بحقيقة المجرم الذى خاف من لفت أسماع الجيران والسكان فلجأ بدوره إلى التهدئة والمهادنة ، فى حين انزوى تامر فى ركن قصى ليرقبه فى صمت بعد أن ادرك مدى خطورة أية حركة طائشة قد تؤدى بحياة أمه الحبيبة !!

شرعت وفاء فى تكديس المال والحلى والمجوهرات فى الحقيبة التى أحضرتها حتى يصدق ثروت أنها تنوى بالفعل تنفيذ كل رغباته ، وبمجرد الانتهاء من غلق الحقيبة أمرها ثروت بأن تسير أمامه دون أن تفتح فمها بكلمة ! صعق تامر عندما أدرك أن اللص قرر اختطاف أمه أيضًا فهاجمه مرة أخرى ؛ لكن رصاصة تخرج هذه المرة من المسدس ، كادت أن تصيب أمه ، وهى طلقة لم يسمعها الجيران بسبب كاتم الصوت !!

تقدمت وفاء وقد ارتدت فستانًا بسيطًا للخروج ، وقبل أن تمد يدها لتفتح الباب وسط بكاء تامر الذى أصبح نحيبًا يسمع الجميع صوت مفتاح يدور فى ثقف الباب ، ويدخل عصام ومعه عبير ليفاجأ بثروت شاهرًا مسدسه ، ومهددًا إياه

بالقتل لو اعترض طريقه ! لكنه يفاجأ بعصام وهو يعترض طريقه بالفعل ويتحداه أن يقتله لأنه يدرك تماماً أنه إنسان ضائع حائر ؛ لكنه ليس قاتلاً ، ولا يعقل أن يهرب من عقوبة السجن لسنوات معدودة لكى يواجه عقوبة الإعدام !!

تصاعدت خطورة الموقف ، ويد ثروت ترتعش على المسدس ، فى حين يعده عصام بالدفاع عنه بكل طاقته إذا ثاب إلى رشده وأنه متأكد أنه سيثوب إليه ! وسرعان ما سقط المسدس من يد ثروت ، والحقيبة من يده الأخرى ، وانهار على أحد المقاعد باكياً منتحباً مثل طفل صغير وسط ذهول الجميع ، خاصة عبير التى استحالت إلى تمثال حجرى من الرعب !!

التقط عصام المسدس والحقيبة ، وهو يطلب من زوجته إحضار التليفون لكنها تقول له : إنه قطع السلك ، فأسرع إلى وصله طالباً الشرطة لتأتى وتتسلم السجين الهارب ، وجلس الجميع فى انتظار قدوم الشرطة وعيونهم مشدودة إلى ثروت فى بكائه ونحيبه !!

❁ ❁ ❁



ت : ٩٣٢٧٠٦